رواية

الرؤيا

عباس مدحت البياتي

الرؤيا

رواية

الرؤيا

حقيقية ركبتُ مطيتها مجبرا، دون قصد، تجولت بوقائعها وتفاصيلها على ما هي، أضعها بين أياديكم كما لمستها ووجدتها دون تغيير، وعسى أن تلتمسوا ماهيتها وتفسروا لغزها

أنا المؤلف/ عباس مدحت البياتي

إهداء

ولـدت هـذه الروايـة مـن رحـم واقـعٍ غريـب، وظـرفٍ رتيـبٍ فـرض نفسـه علـيّ دون تخطـيط أو رغبـة مسـبقة. وجـدتُ نفسـي وسـط تفاصـيلها القاسـية دون تخطـيط، احـداث حقيقيـة ألاحقهـا وهـي تلاحقنـي، كأنهـا كُتبـت لـي وأنـا عنهـا غافـل. لـم أسـعَ خلفهـا، لكنهـا اختـارتني راوٍ لتجلياتهـا، هـذه الروايـة المليئـة بالشـجن واختلاجـات الـروح ومناحـات الـنفس ومناكفـات المحـن، أُهـديها لكـل مـن تهـزه نفسـه، وتتازعـه أنـاه، ويبحث عن سبيلٍ خارج صخب الذات وانطفاء الإيمان.

.... أنـا هنـا لا أدعـو هنـا إلـى الكهنـوت أو الغلـوّ، ولا إلـى الشـعوذة والانحـراف عـن خـط الـدين القـويم، بـل أروي مـا حـدث معـي فقـط، كمـا حـدث دون زيـادة أو نقصـان. إنهـا الحقيقـة التـي لامسـتني، وتركـت بصـمتها فـي داخلـي، بـلا تفسـير، بـلا تبريـر... اقسـم بـالله مـا أقولـه لـيس مـن نسـج الخيـال قـط. اقرؤوهـا كمـا شـئتم، وفسّـروها بمـا أوتيـتم مـن فكـرٍ وإيمـانٍ وتقـدير، فلعلّكـم تجـدون فيهـا مـن المعـاني مـا عجـزتُ أنا عن إدراكه.

الكاتب عباس مدحت البياتي

المقدمة: -

لست هنا لأبرّر ما جرى معي، ولا لأفسّر الأحداث التي وقعت في ساحة الميدان. كل ما أريده هو تسجيل الوقائع كما هي، كما رأيتها وأحسستها بكل تفاصيلها، من الألف إلى الياء—قبل الحرب العراقية الإيرانية، وأثناءها، وبعدها. أردت لتلك اللحظات أن تكون محورًا لقضية كبرى، تجمعها ثيمة واحدة: الغموض المتجذر في النفس والقدر.

لم أكن على موعد مسبق مع المصير. فقد جرّتني الأقدار بعيدًا عن سيري، وألقتني في قلب العاصفة، حيث أصبحت أدور في دوامة فلكية لا مخرج منها، محاطًا بدوائر من العجب والسكينة، يغمرها يقين فطري عميق. هناك، بدأ يتكشف لي لغزٌ أعجزني تفسيره رغم إيماني بالله، وبالقدر، وبرسالة الإسلام. لست متصوفًا أو لاهوتيًا، إنما مسلم يعرف دينه بالفطرة، ويعتز بحب آل البيت حبًا نقيًا لا يحمل دعوة طائفية.

هذا العشق كان دائمًا يسكنني، يسطع في مساري، ويشع كضوء مذنب هالي في سفر الروح، كحرير من سندس وإستبرق يلفّ خواطري، يشير لمكانتي، ويربطني بانتماءٍ غامض لا أستطيع رسم حدوده على خارطة عمري.

زمن الحرب قلب كل شيء. كنت طالبًا جامعيًا، أرنو نحو المستقبل بعين الصقر، لكن اندلاع الحرب قبل التخرج بعامين أطاح بأحلامي، وسيقنا كالخشب إلى أفران الحديد، إلى الجبهة الجنوبية، ضمن صنف المدفعية. هناك، في معسكر المحاويل، خضعنا لتدريبٍ عاجلٍ دام ثلاثة أشهر، لم يكن كافيًا لفهم طبيعة المهمة المكلفين بها ولا نوعية السلاح.

كنا مجرد ضحايا في مطحنة الجبهات، مغلّفين بالشعارات الوطنية، تسوقنا الأبواق الحزبية كقطيعٍ نحو مجهولٍ لا نعيه. لم نكن سوى أسماء مجرورة خلف قرارات لم نشارك بصنعها، ولا حتى فهم أبعادها.

الأرض التي وصلناها كانت قاحلة، بلا زرع أو ماء. أرضٌ سبخة تتنكر للحياة. حتى الحشرات والجرابيع بدت غريبة في هذا العالم الذي لا يليق بالبشر. تلك المعركة، وذلك التيه، غيّرا نظرتي للحياة والمصير.

قضيت ثمانية أشهر في تلك البقعة العاصفة، شهران منها عند نقطة البداية القريبة من العقدة في حوض الرعيل الثاني، رعيل الهواوين الثقيلة عيار 120 ملم، وستة أشهر في قلب العقدة في حوض الرعيل الأول، الذي بدا لي أشبه بفرنٍ لطبخ البشر والحجر. كانت بطارية الهواوين مكوّنة من ثلاث رعائل، كل رعيل يضم أربعة مدافع. وكان مرصد الرعيل الأول الأكثر فتكًا، يتموضع عند خشم الجبهة، في الزاوية القائمة المشرفة على واجهتين إيرانيتين شرقية وجنوبية، بعد أن رسّخوا وجودهم على الساتر الدولي بطول 20 كم وعمق 2 كم بعد انسحابهم خلال معركة شرق البصرة الأولى.

استمرت وحدتنا في تلك البقعة القاسية حتى تحرّكنا إلى قاطع "الطيب" شرق مدينة العمارة، ضمن خطة قيادة الفيلق الرابع لصدّ هجوم محتمل على القاطع. هناك، التحقت وحدتنا باللواء الرابع عشر التابع للفرقة 14. وكانت أرض "الطيب" مختلفة كليًا عن صحراء الدير: أرضٌ نابضة بالحياة، تعجّ بالأودية والهضاب والتلول، بأشجار الطرفاء والأثل والشوك والعاقول، وألوانٍ لا تُحصى من الأحجار والرمال والزهور الربيعية والحشرات والزواحف. رأيت طيفًا من الحيوانات والطيور: من الثعابين والعقارب والخنافس، إلى الفراشات

والجنادل والذباب الحرمز. الأرض هناك تتكلم لغة الطبيعة الخالصة، تربة من الأحمر والأصفر والأسود، تضجّ بالحيوية التي غابت عن صحارى الجبهة الأولى.

قضيت ما تبقى من خدمتي العسكرية في ذلك القاطع حتى نهاية عام 1985، حين انتُدبت للتدريس بعد ثلاث سنوات في قلب الجبهة، ثم خمس سنوات أخرى مدرّسًا، لأختتم فترة الخدمة الإلزامية بثمان سنوات ونيف.

أما عن حصيلة تجربتي هناك، وما شهدته من أحداث، فسيأتي سردها بتسلسلٍ وتفصيلٍ يتناغم مع فكرة الرواية التي أطلقتُ عليها اسم "الرؤيا"، نسبةً إلى رؤيا تداخلت مع نسيج حياتي، لا أودّ أن أُفصح عنها الآن. فهي رؤيا عينية ونفسية روحية وسريرية وربّانية، ستتجلّى خلال السرد، بسلاسةٍ وعمقٍ وانسياب.

1- لحظة الانفلات

في الثاني والعشرين من أيلول عام 1980، اندلعت شرارة الحرب بين العراق وإيران كما هو معلوم، لكنها لم تكن مجرد اندلاعٍ عسكري؛ بل كانت فتنة أخذت تنضج في الخفاء، وتؤرق معهاً الأحلام في أجسادنا وأفكارنا، كأنها محاولات خجولة للتمسك بالحياة وسط ما يخبئه الغد من أوجاع. كانت الحرب اللعينة قد بدأت مع أول خيوط الفجر، بينما كان العراق ينعم بلحظة رخاء واستقرار قصيرة لكنها ندية، تُغشي أحداقنا بضياء الشمس، وتدفئ أعماقنا، وتربطنا بالحياة كعناقيد تعلقت بحبل الرجاء.

نضج الفكر وتوردت الأحلام، وافتتنت أعمارنا بأضواء المستقبل، غدت نشوانة بلذة الشباب وحلاوة الأمن. كان الوطن يتنفس صفاءً عميقًا في أواخر سبعينات القرن الماضي، تحيط به هالة من الأمان والسكينة، وترفرف حوله تأملات ملؤها التفاؤل.

لكن لحظات الرخاء لا تطول حين تتدخل العصا الغليظة لدول الاستعمار، التي لم تكن ترغب للعراق بالاستقرار، طمعًا في مصالحها، وعلى رأسها حفظ أمن إسرائيل. مع اندلاع الحرب، التُف البلد في خيوط المؤامرات، وذابت الغايات في دخان المدافع، ليُدق أول مسمار في نعش الحياة. استمرّت الحرب، تمزّق الدولتين، وتخنق الأحلام الصغيرة، وتطفئ شمعة الوطن التي كانت دليلنا في عتمة الأيام.

هبت الرياح الصفراء من كل الجهات، وشاركت دول بعيدة في تغذيتها، فاختفت البسمة عن شفاه البراعم، وتوارى الفرح من نفوس

الشباب والأطفال. كانت حربًا ضروسًا اقتلعت الأحلام من الجذور، وسرقت بهجة النفوس، وسحقت كل شيء جميل كنا ننتظره بشغف.

خنقت الحرب أحلامنا وأمانينا التي كانت تفيض من قلوبنا العاشقة للحياة، لسعت الأمل وحرقت أطر المستقبل التي رسمناها بيضاء في أعماقنا، في مخيلاتنا، وفي تفاصيل أيامنا. كانت الحياة مستقرة، صباحها نشط، يحمل عبق الحبور، حتى كسفت شمسها فجأة، وأظلمت دنيانا بغتة.

كنت حينها طالبًا في المرحلة الثانية من قسم الرياضيات، زمنٌ كانت فيه الحياة تسير بسلاسة، تتلوّن بمرونة ناعمة، يمكن طيّها وتهذيبها وفق أهوائنا، دون أن نحسب حسابًا لتعقيدات القدر أو فجاجة الزمن. لم يخطر في بالنا أن تمتد هذه الحرب، أو أن تُفضي إلى مأساة طويلة تنهك الأرواح وتبدد الأحلام.

كنا غافلين عن الإرهاصات المتربصة بنا، عن سلاسل المعاناة التي كان الزمن ينسجها بصمت، ولم نرتقب تلك المخرجات الحمقاء التي قذفتنا بها الأيام. رغم المشاحنات والعداوات المستعرة بين قادة البلدين، لم نكن نتوقع أن تتحول الشرارة العابرة إلى لهيبٍ يعصف بالعقل، ويعمي البصيرة، فيحرق الوسط بأكمله. اندلعت الحرب كالنار في هشيم، حطبها الشغف بالصراع، ووقودها الخيبة. أولئك الذين تعلقوا بها لم يحصدوا سوى خرابٍ خاوٍ، وصدىً متعبًا لأمنيات ضاعت.

منذ اللحظة التي اعتلى فيها الخميني سدة الحكم في إيران، لم تهدأ المشاحنات، وكأن الحرب كانت سيناريو معدًّا سلفًا في أفران الغرب، تُدار وتُنسّق من خلف الكواليس على يد دولٍ عظمى تتقن فن إدارة الصراعات دون أن تظهر ذاتها في الصورة. لقد بدا أن دهاقنة السياسة رغم محاولاتهم الحثيثة، عاجزون عن تهدئة الأوضاع أو

تجنّب الحرب بين الطرفين؛ فالأبواب قبل أن تطرق أُغلقت بوجه الساعين لتهدئتها، وكأن هناك من قرر أن الصراع يجب أن يستمر.

كأنما قادة البلدين يُحرّكون عن بُعد، بريموت كنترول خارجي، يُدفع بهم نحو الإنهاك المتبادل، وتُدحرج عجلة الصراع شيئًا فشيئًا نحو الهاوية، حتى ينهار الطرفان أو يقتربا من حافة الانهيار. في هذا المشهد، لا يبدو أن الهدف هو الحسم العسكري، بل إنهاك قدرات الطرفين، واستنزاف الموارد، وخلق سوقٍ جديدة لتصريف فائض الأسلحة والتكنولوجيا الحربية التي تراكمت في مخازن الدول الكبرى.

بعد الثورة الإيرانية، لم تهدأ الاستفزازات الحدودية التي مارستها إيران تجاه العراق، إذ استمرت في قصف متقطع للقصبات والمدن والقرى الحدودية مستخدمة مدافعها بعيدة المدى، دون مبرر واضح أو مسوغ عقلاني لهذا النهج العدائي. وقد اعتبرت القيادة العراقية هذا السلوك أرعنًا ومثيرًا للقلق، بل وكأنه محاولة متعمدة لجرّ العراق إلى صراع عسكري غير محسوب.

كانت بغداد، وإن أعدّت نفسها لمواجهة محتملة مع نظام الشاه قبل سقوطه، غير مهيأة لخوض حرب طويلة مع نظام يحمل أيديولوجية ثورية مشحونة بحماسة غير مألوفة. فالحرب، التي بدأت كرد فعل على تلك التحرشات الحدودية، سرعان ما تحولت إلى صراع وجودي، تغذيه مصالح خارجية، وتُستغل فيه جغرافية المنطقة كساحة لتصفية الحسابات، وتجريب الأسلحة، وإعادة تشكيل التوازنات الإقليمية بما يخدم القوى الكبرى.

العراق، الذي لم يكن مهيأ نفسيًا أو بدنيًا لهذا المنعطف العنيف، بدا وكأنه أُقحم في حربٍ ولدت من رحم ظرف مريب، حمل نُذر الشؤم، وأحاط الناس بظل قاتم. لم تلقَ دعوات التهدئة والتفاهم من الجانب

الإيرانـــي آذانًـــا صـــاغية، بـــل اســـتمر القصـــف بـــلا ســـبب، حتـــى طـــال المدارس، ومنها ثانويتنا التي دُمرت إدارةُ مبناها.

كنــا آنــذاك تلاميــذًا بــأحلام فتيــة، معلقــة بأعناقنــا مثــل عناقيــد الكــروم فــي موســم النضــج، نحيــا فــي ظــل اســتقرار وازدهــار شــهدته الــبلاد، إذ كانــت الحكومــة العراقيــة قــد شــرعت بتنفيــذ خطــة خمســية طموحــة للنهــوض بــالبلاد ونقلهــا مــن تصــنيف دول العــالم الثالــث إلــى مصــاف الــدول المتقدمة.

لكــن تلــك الأحــلام، التــي بــدأت تزهــر وتتلــون فــي مخيلتنــا، مــا لبثــت أن ذبلـــت تحـــت وطـــأة الـــريح الصـــفراء القادمـــة مـــن الشـــرق، فهزلـــت، وتبعثــرت، واحترقــت فــي إعصــار الغضــب والحــرب، التــي زلزلــت مساراتنا، وغيرت وجهتنا، وجرفت آمالنا بعيدًا عن دروبها الاصلية.

كانــت أحــلام فتيــة، مــا أن صــارت تشــرئب مــن وحــي الخيــال وترفــأ كطفلــة فاتنــة فــي ربوعنــا وهــي ترتــع فــي ربــوع الــنفس. حتــى تخضــبت قــدميها بالــدماء، حــين داســت علــى رمــاد القصــف، ومــا أن نضــجت فــي حــدقات عيوننـــا حتـــى جرفهـــا الســـيل البغـــيض لوهـــدة الصـــمت، حيـــث لا صـــوت يُســمع إلا نحيــب الغايــة المذبوحــة.... أنهــا الغايــة التــي خطــط لهــا غــراب البــين لجــز رؤوس فــراخ حمــام بعــد أن أيعنــت خــارج حقولهــا، تاركًــا إيانــا أســـرى قـــرارات أمميـــة تنســـجها دول الظـــلال ومصـــانع الشـــر، وكأننـــا بيادق في رقعة لا نملك فيها سوى الصبر على الدور القادم.

كنــا متشــبثين بتلــك الأحــلام بأســناننا وأظفارنــا، بحــدقات أعيننــا؛ حتــى دقــت أجــراس الحــرب وأُفلــت زمــام الأمــر مــن ايادينــا، فتبــددت الحمــائم فــي منعطفـــات التشـــرد والفكـــر والشـــتات، دون أن نملـــك توجيههـــا أو اســتعادتها. لقــد ســقط جــدار الأمــان مــع أول دويّ للقصــف علــى المــدن، ســقطت معــه الغايــة والهــدف فــي لحظــة اصــطدام فــورة الشــباب الحــالم بمجــده، فارتبــك الحلــم فــي جــوف الصــبر. كبرنــا بســرعة الحــرب حتــى فَــلّ

طيف الطفولة عن الحدق. بتنا نرى تلك الأهداف التي تأملناها فيما سبق دخانا في ذاكرة الزمن، وكأنه حلم اختنق قبل أن يُولد.

النار التي توقدت عند تخوم الوطن تفحمت بها الحدقات؛ وغشيت بلهيبها مجرى الأخبار من خطوط التماس، جثمت سُنن القتل على أنفاس الحياة، باتت تمر قوافل الشهداء في المحفل دون هوادة، لتختنق شذى الأماني الناهدة في صدور الجميع بذات السواد الذي لف الوطن.

منذ أن حلّت الحرب، غابت الكوابح العقل وانفلتت المصائب من عقالها. لم تغمض لنا عين ولم يرمش لنا جفن قط؛ كأن الطير وقف على رؤوسنا وأبى أن يطير. هكذا بتنا نترقب القادم من الأيام دون حراك، دون أن نستطيع تغيير مجرى الأحداث. ما عدنا نستطيع التحرك نحو الأمام، ولا إعادة تشكيل ما انكسر، فتلاعب شيطان الشكّ بمصيرنا، واستباح قلوبنا وعقولنا، حتى وجفت رؤى الأفئدة وناء الفكر وتثاقل الجسد عن احتمال لحظة راحة.

صارت خطواتنا حرثًا في مجهولٍ لا يعرف الحصاد، نحاول غرس الودّ في أفئدة أذبلها الوجع، المشاعر اصفرت على أكفّ العجز، ترفأ إلى ما يحيط بها من وجس وأحاسيس، دون أن نستطيع احتواء القدر أو تجنب غلّه وشره. أمانينا التي كانت في غفلة من الزمن تذوي وتصفَر كأوراق الخريف، نسيها الزمن وصارت هباء في مهب الريح.

على الحافة الجلد، توقف كل شيء. غرقنا في التماري المضني عند مفترق الصمت، حيث لا يقين يشفع، ولا شكّ يرحم. ومن بين العجز الشعبي، كانت الهواجس تتكاثر كأشواك في العقول، أصبح هاجس الحرب الدائر هو الشغل الشاغل لرهافة الناس، والمستقطب لأفكارهم المتذبذبة.. فيما ظل هاجس الدولة يتخبط في معمعة إدارة شؤون

الحرب وثبات الأمن والحفاظ على الرهان بشيء من التوازن. ذلك الهاجس كان ينبئنا بالخطر القديم الجديد المستفحل في عقول اعدائنا...

أحلامنا كانت غضة، ناعمة، شفافة كرقائق المناديل؛ تحمل بساطة الفطرة ونقاء الروح، لكنها ما لبثت أن استعصت، مثل التمر المتدلّي على عذق النخل، لا يُنال إلا بعناء وعرقٍ وجهد. كنا نراها في البدء أحلامًا فُستقية، تكاد تتلاشى بين أناملنا من فرط بساطتها- أمنيات وردة لا تطلب سوى قبلة شمس، لتمنح الأجواء رحيقًا من بتلاتها. أحلام الفلّاح الذي يشحذ منجله بجذلٍ ليروي أرضه، يزرع في ترابها عراقًا، وغيرةً، وأملًا ليوم غدٍ أنضر.

تلك كانت أحلام الشباب، لم تتجاوز حدود الأمنيات حتى عبرنا عتبة المراهقة. بعدها، أصبحت الحياة معادلة بمعطيات وأسس، وفرضت علينا أن نهضم البدايات لنعتنق مسؤوليات أوسع. كنت أحلم بشركة صغيرة أديرها، وبمنزل هادئ، وبسيارة تقي حرّ الطريق، وبزوجة تفهم معنى الشراكة وتقدّر دفء الحياة الزوجية. كنت أرجو لقمةً تغنيني عن الحاجة، وتزيح عن كاهلي همّ المستقبل والمذلة.

حلم المراهقة كان مختلفًا جذريًا عن أحلام النضج، كان يكسوني وأكسوه كدشداشة العيد، نترقب قدومه قبل ليلته. كان يتهادى أمامنا كقمر يطل من جوف العتمة في ليلة صيف صافية، نحدق فيه ويحدق بنا، يؤملنا ويشحذ طاقاتنا ويلهي أرواحنا. كنتُ أحدق في الغد بعين الصقر، وهو يقبع في سقف الأحلام النائية، الكل ينظر إليّ بعين الدهشة. شعوري كان يتقد بألوان الطيف، كشاب عاشق يتطلع لبناء مستقبله بذكاءٍ مفرط، يحلم بحبيبته وجميل قدره.

كنت أحاول أن أصنع لي شأنًا في الحياة، أن أدبر مستلزماتها منذ البداية، أن أعيش عيشة الحمام بعيدًا عن الفوضى والمراهنات؛ عيشةً عفيفة بفكر متقد، وقلب سليم دون تكلّف. حلم شاب رأى ذاته في منامه

يطـوف فـوق الجميـع، بصـبرٍ لـيّن وذكـاءٍ يقـظ، مسـتعدٌّ لتحمّـل منغصـات الحيـاة وعبـث السـنين، مسـتندًا إلـى يقينـه وتحديـه. حينهـا، كنـت أود أن أقـبض علـى المصـير بأسـناني، قبـل أن يلتـف حبـل الـزمن علـى سـاقي، لأرسو فـي عـالمٍ مـن الهـدوء والبسـاطة. لكـن جـاءت الريـاح بمـا لا تشـتهي السفن...

مـرت الاسـابيع والاشـهر علـى واقعـة تلـك الحـرب الملعونـة ونحـن عـاكفون علـى ترقبهـا ومـداراة أزمتهـا وتلـك الأحـلام دون هـوادة، واقفـون علـى دكـة الأمـاني علـى رصـيف الأمـل، عسـى أن تقلنـا قـاطرة الأيـام فـي عرباتهـا لغاياتنـا البعيـدة، واقفـون بجلـد دون تغييـر فـي الظـرف والطقـس، علـى ذات الرصـيف الأجـرد الخـال مـن كـل رونـق وبهجـة، شـعرت قـد مـل صـورنا بعـد تكـرر وقوفنـا دون أن نثيـر فتنـة تثيـر شـغف الظـرف قيـد شـعرة، هكـذا بقيـت لوحـة أحلامنـا خاليـة مـن التجديـد والتنجيـد والراحـة، يكبلنا الخوف دون أن نتحرك خطوة واحدة عن موضعنا الرتيب.

صـارت تمـر علينـا عجـلات العسـاكر وهـي تـدعس علـى تلـك الأحـلام أمـام أعيننـا حتـى ثلبتهـا، دون أن نسـتطيع انتشـالها مـن واقـع حياتنـا ونحـن علـى قيـد الحيـاة، وكـأنَّ المـوت الـذي باغتهـا لـه لـون الـورس، لـون الوجـل القـابع فـي دواخلنـا. بـاءت محاولاتنـا تخسـر جولاتهـا أمـام عجلـة الحـرب، لضـعف قـدراتنا الماديـة والفكريـة، وسـيطرة الدولـة علـى كـل منافـذ التحـرر، مـع ذلـك حصـلت بعـض المحـاولات السـليلة لنسـيان الـذات؛ بقيـت تلـك الانفـاس مكبوتـة فـي صـدورنا تـداور الأيـام بطبـق النسـيان دون أن تنسى، محاولين الحفاظ على صور احلامنا من عبث الزمن.

هكـذا تكورنـا علـى ذواتنـا، تحملنـا الجلـد، كنـا نحـوم حـول أمنياتنـا كـالطيور الجارحـة دون أن نـتمكن مـن تفعيلهـا، فيمـا بقيـت هالـة الحـرب لهـا هيبـة شاخصـة فـي النفـوس الأبيـة، لـم تهتـز أعمـدتها، لـم تتغيـر صـورها، غمقـت وعمقـت أحـداثها فـي خطـوط اليـد، رسـخت صـورها

علـــى جـــدران القلــوب وبأذهـــان النــــاس كلوحـــة رماديـــة، حتـــى صـــارت تزداد شدة وحلكة وشراسة وفتكا في العين والفكر يوم بعد يوم..

مـع اسـتمرارها بقيـت تلـك العـذابات تتجـدد فـي دواخلنـا، رغـم الوسـاطات الـدائرة بـين بغـداد وطهـران التـي قامـت بهـا بعـض المنظمـات الإسـلامية والإنسـانية بـرحلات مكوكيـة لتهدئـة الموقـف بـين الـدولتين دون هـوادة، بقيـت آليتهـا تطحـن وتثـرب بفكـر واجسـاد الشـباب علـى جبهـات القتـال، بقيـت تتـدحرج عجلاتهـا نحـو الهاويـة، شـمعت تلـك المحـاولات بالشـمع الأحمـر مـن قبـل الشـيطان الأكبـر، لـم يتفقـوا ولـم يقتنعـوا علـى صـيغة إيقاف وإقناع ترضي قادة الطرفين على التهدئة.

بقيـت الحالـة مستعصـية فـي إقامـة مـآتم العـزاء فـي الأزقـة والشـوارع وفـي بيوتـات الامهـات الثكـالى مـن المسـاكين، هـؤلاء الفتيـة مـن شـباب الجنـة ملفوفـون بعلـم الـوطن، حتـى صـار للمشـهد جـزع ورهبـة فـي قلـوب النـاس. صـارت موجـات العنـف تهـز الأبـدان وتخنـق الأنفـاس. أضـحى القلـق والوسـواس يسـري فـي العـروق مـع جريـان الـدم، ممـا جعـل الـبعض ينفـر بجلـده خـارج حـدود الـوطن، مقارنـة بأغلبيـة ضـعيفة تكـورت علـى فقرهـا المـادي ونفسـها المستسـلمة، محتميـة بجِلـدِها الطـري رغـم السُـقمِ الواقـع عليهـا، دون أن يكـون لهـا حـظ وافـر وقـدرة علـى تغييـر واقعهـا المر، المليء بالتناقضات على حساب الراحة والاستقرار.

المســألة تعــددت عقــدها، تجــذرت فــي العــروق، أصــبحت شــائكة، مليئــة بالأسـرار والتناقضـات، صـار لهـا أثـر واضـح فـي الوجـوه لكثـرة الأوشـام التـي تركـت لهـا أثـر فـي النفـوس، صـار لهـا قدسـية عنـد الـبعض لا يمكـن التفريط بها.

أضـحت الحالـة العامـة مضـطربة بشـكل جلـي، مضـطربة، شـاذة، معقـدة، تـزداد شـدة وسـوادًا وحزنًـا يومًـا بعـد يـوم. صـور المعـارك توضـح واقـع الجبهـات وتكشـف عـن كـرٍّ وفـرٍّ علـى حـدود الـوطن، والتـي عجـز العـدو

عن اجتياحه. ومع ذلك، فإن الواقع لا يشير إلى نصر حاسم، بل إلى مكاسب متفرقة هنا وهناك، وقد يكون جرحهم أعمق من جراحنا.

في البدء، بدت الحالة غامضة وجدلية بالنسبة لنا، بينما رآها العدو فوضى عبثية تحمل في طياتها حقدًا وازدراءً. وكأن القيادة الإيرانية استبشرت بإعلان الحرب عمدًا، فحشدت كامل طاقتها لإدامتها، شحذت السكاكين والخناجر والسيوف لتسفك دم الأبرياء، وهيّأت شعبها ليكون وقودًا لأفرانها ومطاحنها. بدا الأمر وكأنه ذريعة للغوص في أهوال الحرب، تحت قناع إعادة مجد فارسي غابر، غاب بإذن الله إلى الأبد.

كانت إيران تدرك أن العراق هو رأس العرب وشوكتهم التي تؤلم، ولذلك أصرت على مواجهته دون سواه، ساعيةً لكسر شوكة العرب في مواجهة أطماع الفرس، مستندة إلى ثقلها السياسي والجغرافي، وتفوقها في المساحة والسكان والعتاد بما يعادل ضعفي أو ثلاث أضعاف العراق، مع دعم سخي من الغرب الحاقد. فاعتبرت العراق لقمة سائغة وفق حسابات الأرقام... أما حسب معايير الفكر والقيمة والتجربة، فالكفة تميل بوضوح نحو العراق.

"وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله" —— صدق الله العظيم

لقد افتقدت القيادة الإيرانية لحكمة الرؤية والتقدير، وظلت تصر على اصطدام رأسها بجدار العراق الصلب، تشدُّ وطأة المنازلة، فيما الإعلام المعادي ظل يقرع طبول الحرب حتى تهشمت الثقة بالدولة على أيدي أبطال الجيش العراقي، بعد ثمانية أعوام عجاف من حرب فرضت علينا قسرًا.

2-ارتداء البدلة العسكرية

في هذا الإطار، أكتفي بسرد حالتي النفسية قبل اندلاع الحرب، وخلال ارتدائي البدلة العسكرية، وبشكل خاص أثناء مشاركتي الفعلية في معتركها، تلك المنازلة الأليمة التي ابتُلي بها كلا الشعبين. سأروي ما عايشته بعدها حتى هذه اللحظة، حيث لا تزال تبعاتها تسكن وجداني وتشكّل طيفًا دائمًا في حياتي.

إنها سلسلة متصلة الحلقات، لكل مرحلة فيها طابعها الخاص وحيثياتها ونتائجها، وكل واحدة تنطوي على رسالة إنسانية، تتطلب تأملًا ومقارنة، لاستخلاص الفوارق وتقييم المقالات. سأقودكم عبر أروقة تلك الفترات لتتلمّسوا اختلافاتها، وتستقرئوا ما سجلته من أحداث وملاحظات، اصطحبتها في خزين ذاكرة تراكمت عبر سنوات التلاحم الفعلي بيني وبين الحياة، منذ وعيي الأول قبل نشوب الحرب، وخلالها، وما أعقبها من آثار ممتدة إلى لحظة كتابتي هذه.

أُبرز جانبًا من حياتي اتسم بثيمة خاصة، لما فيه من أحداث مشتركة ووقائع متشابهة، شدّتني إليها، فسجّلتها كحقائق وشتائل زرعتها في حديقة خاصة، أبحث فيها عن الرابط الخفي الذي يجمعها. كتبتها لأنها أحداث غريبة، دسمة، عميقة، ثرية بكل معانيها وتفاصيلها. تحمل رسالة لا تغيب، وتكاد تكون الصفحة المشرقة من حياتي، على الرغم من أنها مغموسة بالفطرة والخيال، والألم الذي يتجاوز مدارك الخيال المألوف. أحداث تهجس بخطوطها الداكنة والعميقة في صفحات وجودي مراءة، تكتنز بطابعٍ باراسيكولوجي، يفيض بالعجائب والغرابة التي تستوجب التوقف والتأمل.

بحق، كانت تلك أطول رحلة في حياتي، ربما ما زلت حتى اجوب وقاعئها ا دون أن أدري، فهي ليست مجرد فصل من العمر، بل رحلة

مـع الحيـاة ذاتهـا لا نـهايـة لهـا. أصـعب محطاتهـا هـي فتـرة المنازلـة، تلـك التــي لا تُنسـى ولا تتكـرر، والتــي شـكلت نقطـة التحـول، وجعلتنــي أعقـد العـزم علـى كتابـة هـذه الروايـة. إنهـا محـور مـا جـرى معـي قبلهـا، خلالهـا، وبعدها، لأنها مرتبطة ارتباطًا عميقًا بما سأروي من رؤى لاحقًا.

إنهــا أطـول منازلــة عرفهــا التــاريخ المعاصــر بــين الجــارتين (العــراق وإيــران). عشــنا وقائعهــا بكــل مــا فيهــا مــن مــرارة وغِــلّ، عبــر ثمــانِ ســنوات عجــاف، خلّفــت آثــارًا لا تُمحـــى مـــن جلــد مـــن شــارك فيهـــا، خصوصًــا الأســرى والمعــوقين الــذين يحملــون شــواهد حيّــة عنهــا فــي أسـفارهم. معركــة أفــرزت أوســمة لا يضــاهيها ثمــن، تعلّقــت بصــدر كــل مقاتـل دخـل معمعـة الرهـان، دافـع عـن الـوطن بشـجاعة، وشـهد مـا لا يُنســى. ذاك الإحســاس الفريــد لا يعرفــه إلا مــن عاشــه فعــلًا؛ إحســاس يشـبه مـا شـعرتُ بـه فـي مواجهـة داعـش، أو مقاومـة الاحـتلال الأمريكـي للعـراق، أو نضـال الفلسـطينيين ضـد الشـبكة الصـهيونية العالميـة. فـرغم اختلاف الأهداف، تتشابه قيمة المواجهة، وتتساوى حرارتها.

أنـــا لا أتحـــدث هنـــا عـــن الحـــق والباطـــل، بـــل عـــن جـــوهر المشـــاركة والمنازلــة والصــمود، وعــن مشــاعر المقاتــل فــي خضــمها، وعــن الثنــاء الــذي تلقــاه مــن ذاتــه ومــن مجتمعــه ووطنــه، بقيمــة إحساســه، وبقيمــة حضــوره الفعلــي. إنهــا فعــلاً مفخــرة مــن مجــد، ارتــدينا قفطانــه، وتأملنــا آفاقـه، لأننـا كنـا جـزءًا جوهريًـا مـن تلـك الملحمـة، بكـل عقـدها ومشـاهدها وصورها التي حفرت مكانها في سجل التاريخ.

الحــرب، رغــم قســوتها، كانــت لوحــة مــن المجــد، جُسّــدت غيــرةً علــى الــوطن، وكتبــت ســطورًا لا تُمحـــى. حـــربٌ فُرضـــت علـــى الشـــعبين بصـورة عبثيـة، فـلا أحـد يحـب الحـرب، ولا أحـد يرغـب أن يكـون جـزءًا مـن عقـدها القاسـية، لأن الحـروب لا تجـرّ خلفهـا سـوى الـويلات. لا أحـد

يرتجيهـا إلا بهـدف سـامٍ يُثبـت وجـوده. ومـع ذلـك، وقعـت تلـك الحـرب بفعل مخطط جائر، فأحرقت الأخضر واليابس على حين غفلة.

الحـرب فـي نظـر المقاتـل ليسـت كمـا يراهـا المتـابع أو المشـاهد مـن عامـة النـاس، ولا كمـا تـدركها القيـادة مـن علوهـا الاسـتراتيجي. فهـي بالنسـبة لـه مصـيبة، متغلغلـة فـي وجدانـه، تُشـعره بمـرارة لا تُقـاس بخيـالٍ أو قـانونٍ أو طبيعةٍ بشرية.

يشـعر بهـا صـيغة مـرة فـوق الخيـال والقـانون والطبيعـة، حـين يجـد ذاتـه مغصـوبا عليهـا أن يـربض فـي موقـف حـرج أمـا أن يكـون وأمـا أن يكـون لا غيـر، أن يكـون بـلا كينونـة، بـلا إرادة، حالـة متطفلـة علـى الحيـاة، حيـث تتجمـع لـدى المقاتـل صـيغ ملونـة تجمـع كـل معطيـات الإنسـان والإنسـانية مـن ذكـاء وفطنـة ودرايـة وتمحـص وترقـب وانتبـاه وتشـتت ومغـــامرة وعنفـــوان ورجـــاء ومغـــالاة وانطـــواء وانتهـــاء بالتحســـب والصـمود كلهـا متجمعـة فـي نقطـة ضـعفه، فـي بـؤرة الشـك التـي تحـوم حول يقين هش..

تلـك الحالـة مـن القلـق والتحسـب لا تبقـى سـلبية، بـل تتسـامى لديـه لتتحـد مـع روحـه وهدفـه ونيتـه. لـذا، عليـه أن يكـون حـذرا وأن يقـرأ المشـهد قبـل وقوعـه، ليجنّـب نفسـه العنـاء والجـواء، أن يتواجـد فـي أقصـى نقطـة عـن الخطـر... وفـي ذات الوقـت، يكـون حاضـرًا فـي قلـب الزمـان والمكـان حـين تسـتدعيه اللحظـة، وسـط تلـك المعمعـة المتوهجـة، يكـون شـامخًا، يحمـل علـى عاتقـه صـولة التحـدي بإصـرار يُقنعـه بتـأثيره فـي المقابـل، ويعـزز ثقتـه بنفسـه، ليكـون أهـلاً للثبـات فـي عيـون ذاتـه اولا ثـم مرؤوسـيه ووطنه.

ولكـن، رغـم كـل هـذا التنظيـر والفلسـفة... يظـل الأمـر افتراضـيًا، محصورًا في الورق فقط. أما في الحقيقة، فلا عاصم من النار.

لذا على المقاتل أن يشيد أسوارًا دفاعية نفسية وذهنية تمنع العدو من النيل منه، أن يخطط للنيل من الذي يود أن ينهي صيرورته في الحياة. فالصراع لا يعتمد على السلاح وحده، بل على منظومة متكاملة من الحظ والشجاعة والذكاء والدراية والصبر، إضافة إلى نوعية الأسلحة وطريقة استخدامها، ومدى براعته فيها.

إنه يعيش حالة تأهب دائم وتفكير مستمر، يعمل على رسم حدود تحفظ كيانه، وتقيه السقوط، في الوقت الذي يثقل كاهله بعبء الحياة النفسية، وشدة الوحدة، وتحديات الذات. وتتضاعف مسؤولياته حين يكون المقاتل المتعلم مرافقًا لمن يعاني من ضعف الإدراك أو انعدام الأمل، فيتحول دوره إلى قيادة مدروسة تجبر الآخر على التفكير العميق، والتخطيط لما قد يطرأ في لحظات السريعة المفاجئة، قد تُفرج عن غموض المستقبل أو تزيده تعقيدًا.

ومن المنظور الخارجي، قد تُصوّر تلك الحرب كبطولة؛ يظهر فيها الفرد كمُجاهد يواجه عدوه بندية، ويجادله بالتي هي أحسن وبالحكمة، حتى يُكتب له النصر أو تُرفع له راية الشهادة.

ذلك هو الفارق بين من يشهد الحدث ومن يكتفي بمشاهدته؛ بين من يعيش الحرية ومن يقيده واقع الحرب. الفارق شاسع، ومن الضروري أن ننقل للمشاهد فكر الشاهد، وعمق تجربته، ونظرته للحياة والموت، وتفاعله مع الحالة، بكل دقة وصدق.

في هذا المجال سأوجز أهم محطات الذاكرة على شكل شذرات تقلدت بها مسيرتي المسيرة بحكم المجهول، لتكون وصفة جذب وحبكة رؤى وجمال رواية، حيث أنها تحمل في كينونتها لمعة بهية من نور ذلك الزمن المبجل وتلك الملحمة المخلدة والتي عزفت الحانها في فترات الحقبة الذهبية من العصر، اسجلها للتاريخ.

لـن يلـتمس الـق ولمعـة تلـك الشـذرات إلا مـن خـاض تلـك النزاعـات وغـص فـي أتـون نزقهـا ونزفهـا وعـذاباتها وتحمـل مـا تحمـل مـن اعبـاء الهمـوم وشـطط السـموم ومغـالاة الظـرف وتجـرد الايـام بعـد أن غصـت اقدامنا في موج ذلك البحر العاتي.

لا يشـعر بقيمـة تلـك الأيـام إلا مـن تلطخـت أقدامـه بوحـل الحـزن والألـم الـزمن التــي نــدت نــداها مــرارة عبــر الســنين، تحملـت شـجون الرفــاق الــذين استشــهدوا أو فقــدوا وأســروا، هــؤلاء الــذين كــانوا ضــحية تلــك المنازلة وهم لم يقرؤوا جريدة حياتهم بعد...

لـن يـدرك اهميتهـا وصـعوبتها إلا مـن شـهد وقائعهـا بـأم عينيـه والـتمس وجعهـا ولاس مرارتهـا بخلايـا جسـده ومشـاعره وفكـره، ذلـك الـذي أشـير إليـه، تلـك الصـولات والنـازلات التـي شـهدتها الحـرب، تركـت مخزونهـا عقد في ذاكرة ابطالها، ستبقى خالدة أمد الدهر.

قبــل الحــرب كانــت الحيــاة أشــبه بسلســة ذهبيــة معلقــة فــي جيــد فتــاة عشــرينية، تهجـس بأصـدافها وصـفائها ولمعانهــا تعطــي إضــافة حيويــة لــروح تلــك الفتــاة الجميلــة. كانــت الأمــور غايــة بالبســاطة، واضــحة المعــالم، مجــردة مــن الهمــوم والعقــد. كانــت المحبــة ســائدة والتعــاون مبــرور والعدالــة واقعــة وشــاملة، كانــت الألفــة حســنة، مــراءة، مباحــة كواقــع حــال علــى أتمهــا بــين الأســر وأفرادهــا والشــعب، كــل شــيء كــان علــى مــا يــرام ويــدل علــى أن الــزمن القــادم سيكون أكثـر وضـوحا ومرونـة وسلاسـة، فـي ظـل اسـتقرار سياسـي وتطـور فكـري وحضـري وتكنلـوجي غزا العالم في نهضة غير مسبوقة.

فــي تلــك الظــروف السلســة تهجــس بــالأحلام أضــحت تتــراقص علــى عـزف الاسـتقرار فـي شُـرَفْ الـذهن، بـل تهجس بهـا تطيـر فـي أجـواء ذلـك الحبــور المنبــث فــي نفــوس النــاس والمنبعــث مــن حالــة الاســتقرار والصــفاء الــدائر فــي البلــد، كنــا أشــبه بــأفراخ الحمــائم الناهــدة بإعشاشــها

وهـي تحلـم بـالطيران فـوق ذلـك البسـاط الأخضـر المفتـرش علـى مسـاحة العراق، تحلم باكتمال قوادم أجنحتها وخوافيها لتلتحق بأسرب الطيور.

هكـذا كـان الـزمن مكبـول بـين أيادينـا، نـتحكم بـه، نعـرف حسـاباته، نجـري في مسالكه كجريان الماء في الجدول حتى مصبه...

ونحـن نعـيش تلـك الحالـة مـن الامـان والتأمـل والارتقـاء غيـر مبـالين للمسـتقبل؛ تفرقعـت تحـت اقـدمنا بعـض العقـد التـي لـم نكـن ننتبـه عليهـا، فجـأة حلـتْ بـين أيادينـا صـرة العـذاب، تبعثـر كـل شـيء فـي ذلـك الفـراغ العـائم كـأجزاء الـزمن، مضـت الأمـور فـي مسـالك العمـر والحلـم دون تخطـيط، اضـحت اللعنـة التـي كنـا نتجنـب سـوطها تهطـل علـى اجسـادنا، تحـط فـي مسـاراتنا، تلتمـع كحبـات الخـرز فـي الطـرق لتجـذب اهوائنـا، تراهـا متنـاثرة فـي مسـالك وزوايـا العمـر، يصـعب لملمـة أجزاءهـا. احاطت بنا كأصفاد الحديد والجمر، تقيد مساعينا.

صـارت المنـافع الخاصـة والعقـد تتصـاعد وتيرهـا، تتضـارب وتتصـارع فـي ذهـن الشـخص، تشـع فـي عيـون الـبعض وتخفـت فـي أعـين آخـرين، تغيـرت صـفاة الحيـاة وألوانهـا بشـكل عـام بتغيـر صـفاة البشـر، صـار لهـا ملمس شـوكي ومخـاطي مؤلمـة مـن جهـة ويصـعب الإمسـاك بهـا مـن جهـة أخرى.

صـــار المســـتقبل كقطعـــة خشـــبية تتمـــاهى فـــي بحـــر مضـــطرب مـــن الأحـــزان، يشـــتط كشـــبح ناهـــد فـــي ديجـــور الغـــد، يتـــدحرج بـــين رؤى البصـير وعنـاء الضـمير، تـراه يختنـق فـي قمـة الشـك ويشـرق فـي قـاع اليقـين دون أن يـؤثر فـي أحـداث الجاريـة، دون أن يلـتم مثالـب الـزمن ويحـط مـن قـدر ذلـك المحيط المتقلب بنـا، مـع ذلك بقينـا نتبـع الظـن وظلـه، مندسـين تحـت خيمـة أحـلام باليـة، آملـين يـوم جديـد خـال مـن منغصـات العُقَدْ.

لقد شغلتنا المعارك عن أولوياتنا، أفقدتنا أحلامنا، وأغرقتنا في أخبار الموت والوطن حتى نسينا أنفسنا، وهواجسنا، وتطلعاتنا الأخرى. على الرغم من أن الأحداث كانت مجرد أنباء من جبهات القتال ولم تمس أبداننا، إلا أنها كانت سهامًا تخترق مشاعرنا، وتجرح عقولنا وكرامتنا؛ حتى أدمتها شجنًا وكربًا ووحشة.

تلك الأيام سلبتنا دروسنا، وأبعدتنا عن أحبائنا وهواياتنا. لم نعد نشعر بالفرحة كما كنا من قبل، ولا نعي حقيقة ما يستجد من أحداث. أصبحت الأمور بالنسبة لنا ضبابية، نسير في ركاب قافلتها دون إدراك، نتبع الحادي الضرير. كنا فتية في مقتبل العمر، قليلي الخبرة، لا نعرف شيئًا عمّا يدور حولنا سوى ما تنقله لنا وكالات الأنباء: انتصارات وتقهقر، كرّ وفرّ على الجبهات. كانت الانفعالات تتسلل إلى أرواحنا لتغرس فيها حب الوطن، وفي الوقت ذاته تُغرس سهام الأسى في أعماق القلوب.

كانت رؤيتنا سطحية، وحساباتنا بسيطة كأفراد وطلبة، نعتقد أن الحرب ستنتهي خلال أيام أو أسابيع أو شهور. لم يخطر ببالنا أننا سنبتلع السنين، وأن خلف هذه الحرب أيادٍ خبيثة تعدّ الحطب لمواقدها، وشركات ودول تفتح مخازنها للطرفين، متعمدةً تأجيج نيرانها لمكاسبها ومصالحها.

كنا نأمل انتهاء الحرب عند بدايتها، نزحف نحو السلام، بينما الواقع يزحف نحو العبث. تباطأت أحلامنا وتجمدت في مواضعها، وابتلعتها الأيام حتى فقدت كل تفاصيلها، غمرتها غيوم الحرب، فصار الجميع يلوذ بها، ويتبلل بسُمومها، حتى الأطفال والنساء والشيوخ لم يسلموا من آفاتها.

ومع انقضاء السنة الأولى، ذابت مشاعرنا في نيرانها، وتلاشت أحاسيسنا في هباء لهبها. غدا الزمن القادم ظلًا ملتهبًا، نرتجف من صوته قبل أن يصلنا، وصارت حرارة الأيام تذيب شموع صبر الشباب، وتخدش دفاتر أحلامهم.

أصبحنا نتخبط في عشو الليل، ننخدع ببريقٍ زائف، تتنفس أرواحنا مزيجًا من شهيق الهم وزفير الغم، لعنة تشتيتٍ لا تهدأ. لم يكن ذلك جزعًا فحسب، بل حالة من الجمود العاطفي والإخفاق، ينبعث من كوة الروح شواظٌ يحرق صور الأحبة من أهل ورفاق. توقفت مشاريعنا كشباب متطلع، وارتدت الأحلام ثوب التأجيل، كأنها عُلّقت على رفوف الزمن إلى أجل غير معلوم.

التقلبات التي عصفت بأقدارنا غيّرت المسارات، أجلت مشاريع الحياة، وأطفأت وهج الحب والهيام، حتى بات كثيرٌ من الشباب يعزف عن الزواج، وترددت الفتيات في الارتباط بأشخاص يكتنف مصيرهم الغموض. كأن أحلامنا كانت جبلاً من ثلج ذاب بحرارة المدفع.

قبل أن أنهي جامعتي، استشهد رفيقنا صاحب الأخلاق الرفيعة والوجه الباسم، المرحوم قاسم شمس الدين، ضمن أول قوافل الشهداء، وتتابعت بعدها أسماءٌ عزيزة: جليل، خالد، كريم، وحيد، وذياب... قائمةٌ يصعب احتواؤها. لم تمر تلك الحرب من أمامنا مرور الكرام. لقد أصيب أخي بشظية في عينه، وبُترت ساق أخي الأصغر، واستُشهد ابن خالتي ونسيبي وجاري، وزملاء المرحلة ممن سُوقوا جنودًا وضباطًا. تركت الحرب أثرًا أسود في نفوس الجميع، وسخامًا على جدران كل بيت. قوضت حياتنا، بعثرت مستقبلنا، وأحرقت أهواءنا، حتى بتنا لا نفكر إلا في دحرجة أيامنا بالتي هي أحسن.

كنا نعتقد لن تمر بنا أيام سود أكثر دجنة من تلك التي تداولناها خلال الحرب... لكنها جاءت مع ظرف أبتر لم يمر العراق بمثيله عبر

تاريخه الطويل، ظرف أسود فاحم تجلا بوقع احتلال وغل طائفية، بحيث باتت الارض تكره نفسها لما تشبعت من دماء اصطبغت بها.

بعد تلك الأحداث، فرغنا من كل رغبة وكل حلم تشبثنا به. صرنا نلتمس الغد بالدعاء والتضرع، نتأمل الماضي بكل ما فيه من عيوب وخيبات. باتت الصوامع تضج بالمصلين في أوقات العبادة، وارتفع منسوب الإيمان بين الناس، كأن حقنة الخوف قد تسربت إلى الجميع، فصار كلٌّ يشعر بقرب نهايته، وبخاصة الشباب. ارتدوا ثوب الدين والعفة، تسلحوا باليقين والقدر، وانضموا إلى الشيوخ في مساعي ردّ شر الحرب ودفع بلائها.

نسينا، أو لعلنا تناسينا، أحلامنا البريئة مرغَمين. وعدنا أنفسنا بتوبة صامتة، وتركنا اللهو والمرح والزواج وكل الأحلام في حقائب الماضي، مغلقة بندمٍ وألم. تشبثنا بأعمال لا تناسبنا فقط لنمنع أهواءنا من الانزلاق نحو وهدة العنف، نرجو أن تبتسم الأيام بوجه الأطفال والمساكين، أولئك الذين حملناهم في ذاكرة الصبا.

كأنّ الزمن جفانا، فمحا من أكفنا خطوط الحظ. تلك الخطوط الرفيعة التي كانت تنبض بالأمل والتأمل، صارت باهتة، لا تقرأ فألًا ولا تنبئ عن مستقبلٍ يُرتجى. اندثرت مع الأيام والعادات، وذابت المصطلحات والصفات والأهواء والمقررات، وكل ما يفرح قلب الإنسان. أضحت عناصر الحالة كالهَبَاء، تعبث بها ريح الظرف والقوة السائدة في المكان والزمان، إلا أولئك الذين تجاوزوا حدود الزمن وصمدوا.

بتنا نتخبط في دروبنا، تاهت بنا دوامة الشك، وتشابهت الأزقة والطرق والأيام. منذ اندلاع الحرب، تغيرت ملامح الزمن، وصارت الأيام تنحدر نحو الهاوية، والقادم منها أسوأ حالًا من سابقاته. تلاشت أفكارنا وتوارَت أحلامنا في ظل عتمةٍ لا ترحم. لم نعد نميز بين الصالح والطالح، ولا نناقش حظوظنا، ولا نقرأ طالعنا. ضاعت

الآفــاق، وغابــت الأحــلام عــن دفــاتر الــذاكرة ومســيرة الحيــاة. تبخــرت الفرص، غرقت السفن بموج التيار الجارف.

مــا أن أنهيــت دراســتي الجامعيــة؛ حتــى سُــوقت مــع كوكبــة مــن الــزملاء لإداء فريضـــة الخدمـــة العســكرية الإلزاميـــة، المفروضـــة والمكتوبـــة علـــى كل ابناء الشعب من الذين بَلَغوا سن الرشد....

منـذ اللحظــة التــي ارتــديت فيهــا البدلــة العسـكرية، شـعرت وكـأن شـيئاً فــي كيـاني قـد تبـدّل؛ ملامحــي، قـامتي، وكبريــائي، كلهـا شـهدت انبعاثـاً جديـداً، وكـأن الـذات انقلبـت علـى نفسـها 180 درجـة، لتُغـرس مـن جديـد فـي تربـة الوطنيــة والنبــل والســمو. لــم أعــد ذاك الــذي كنــت شــبه ســطحي، بــل أصـبحت شـيئاً آخـر: أكثـر صـلابةً وإرادة، وأشـدّ نعومـةً ومرونـة وقـوة، وكــأن البدلــة نفســها قــد أعــادت تشــكيل الــروح والبــدن بــنفَس رجــولي ساحر.

لقـد تغيّـرت نظرتـي للحيـاة، باتـت أكثـر عمقـاً واتزانـاً، وأدركـت أن الـدلع والرخـاوة ليسـا مـن شـيمي الجديـدة. صـارت الخشـونة علـى جلـدي رمـزاً للرقــة المبدئيــة، والكــاكي بــات لونــاً مقدســاً تنبــع مــن خيوطــه حــرارة الانتمــاء وبــرودة الانضــباط، فيــه مــن الســحر مــا يكفــي لتحويــل صــاحبه إلى رمز يُجبر الآخرين على احترامه.

العســكرية ليســت مجــرد انضــباط، بــل هــي مصــنع الرجولــة، صــهرٌ للشخصــية، وتهــذيبٌ للــنفس، وســموٌ للفكــرة. ومــن لــم يلــبس البدلــة العســكرية يبقــى نــاقص رجولــة فــي أعــين الآخــرين، وبالــذات الفتيــات حيــث يملكــن حاســةً دقيقــة فــي استشــعار ملامــح الرجولــة مثلمــا نستشــعر الأنوثــة فــيهن. ولهــذا تجــدهن يبحــثن عــن العســكري ليتبــاهين بــه، خصوصــاً إذا كــان برتبــة ضــابط، حيــث الهيبــة تفــيض مــن تفاصــيله وتفرض احترامها.

حـين نُقلـت إلـى معسـكر المحاويـل فـي بابـل، وانضـممت إلـى صـنف المدفعيـة، شـعرت بـالفخر. كنـت وسـط نخبـة مـن المثقفـين والخـريجين- أطبـاء، مهندسـين، صـحفيين، مـن بيـنهم المـذيع المرحـوم أكـرم محسـن، والصـحفي منصـور. كـل هـؤلاء اجتمعـوا ليكونـوا صـنفاً فكريـاً وعلميـاً ضـمن الجـيش، فكانـت مسـؤولياتنا دقيقـة ومعقـدة، لا تسـند إلا لأصـحاب الكفـاءة، بعيـدةً عـن خطـوط المواجهـة لكنهـا أساسـية فـي إدارة العمليـات العسكرية بحكمة وحساب.

التنسيب للوحدة

بعد أن أنهيت دورة الإعداد والتأهيل، وجدت نفسي أقف على أعتاب الجبهة دون أن أُعدّ كما ينبغي، إذ لم نحظَ بإعدادٍ حقيقي يجعل منا مقاتلين قادرين على توجيه دفة الحرب ومواجهة عدو شرس كما تقتضي الحاجة. ثلاثة أشهر فقط، مدة قصيرة كحلمٍ عابر، قُيّمنا خلالها بدرجاتٍ لا نستحقها، فقط لتُفرغ الأماكن سريعاً لدورات جديدة، وكأن آلة الحرب جائعة لا تشبع، تطحن أرواح المقاتلين كالرحى التي تطحن الحَبّ دون هوادة.

عند وصولي إلى وحدتي، كان هناك جندي واحد من صنفي، في حين أن المتطلبات تستوجب وجود أربعة على الاقل لإدارة دفة الحرب. صنفنا كان يسمى "المُعين"—اسمٌ مبهم لم نعرف كنهه حتى دخلنا جبهة القتال، فتكشّف لنا أنه صنف القيادة، صنف العقل المدبر وراء المدفع، صاحب القرار في التهيئة والتخطيط، وفي صنع الحلول وسط عقد الجبهة واستمرار المنازلة.

كان الإعداد مسيّراً على عجل، نتيجة لعجز واضح في عدد المقاتلين، خاصة في الصنوف النادرة والخطرة كصنفنا. هذا العجز في خطوط التماس، الذي بلغ أقصاه بعد سنتين من المعارك الطاحنة، لم يكن إلا شاهداً على حجم الخسائر التي تكبّدها الطرفان، وعلى الضراوة التي بلغها القتال، حتى أصبح استنزاف الإنسان جزءاً من روتين الحرب لا من استثنائها.

بعد إعلان قائمة التنقلات، أُدرج اسمي ضمن المنتسبين إلى كتيبة الهواوين الثقيلة، التي تستخدم مدافع عيار 120 ملم، متمركزة شرق البصرة ضمن لواء المشاة 503. تسلّمت إجازة قصيرة مدتها أسبوع عقب إنهائي الدورة التدريبية، إجازة تُشبه الوصايا الأخيرة أودّع فيها

أهلـي وأحبّتـي كمـا لـو أننـي ألقـي نظـرة الـوداع علـى عـالم ألفتـه قبـل أن أغوص في غياهب المجهول.

كـان الـوداع ممزوجًـا بنظـرات صـامتة تخفـي قلقًـا دفينًـا، وكـأنهم يشـعرون بـأنني مقبـل علـى نفـق لا يُـرى لـه ضـوء. لـم تكـن وجهتـي مجـرد موقـع عسـكري، بـل رحلـة إلـى مصـير غـامض، مجـرّد مـن الرهافـة، محكـوم بجدل بين الذات والهوية.

التحقـت بالجبهـة بعـد انتهـاء الإجـازة، تائهًـا كـالأعمى، أحمـل فـي يـدي كتـاب انتسـابي كجـواز عبـور إلـى عـالمٍ آخـر. لـم أعـرف الكثيـر عـن الجبهـة التـي زججـتُ بهـا، إلا مـا شـفت أحـداقنا مـن صـور المعـارك ومـا قرأنـاه فـي الصـحف. الواقـع ظـل غريبًـا غامضـا عنـي... أعـرف فقـط أننـي صــرت جنــديًا فــي بطاريــة رعيــل الهاونــات 120 ملــم، تابعــة للفيلــق الثالث، ومتجحفلة مع لواء 503.

لـم تكـن لـديّ فكـرة واضـحة عـن طبيعـة المـدفع الـذي نُسـبت إليـه، فأنـا خـلال دورة التـدريب لـم أتعـرف سـوى علـى مـدفع بعيـد المـدى، بسـبطانة عيـار 52 ملـم. كنـت أظـن – سـاذجًا أو متفـائلًا – أن سـبطانة المـدفع كلمـا كبـرت، كلمـا زاد مـدى المـدفع، وبالتـالي سـأكون فـي مـأمن، بعيـدًا عـن خط التماس، في عمق الجبهة لا في واجهتها.

حـين نُسـبت إلـى مـدفع بسـبطانة 120 ملـم، خُيّـل إلـيّ أنـه سـيحمل ذات المـدى، أو ربمـا أكثـر. هـذا الاعتقـاد كـان وليـد مقارنـة غيـر مكتملـة، بغيـاب أي معلومـة دقيقـة أو وسـيلة للتحقـق. فالمسـؤولون عـن الـدورة تعمّـدوا تغييـب شـكل المـدافع، وتجنّبـوا التوضـيح، كـي لا يواجهـوا رفضًـا واعيًـا مـن الجنـود عنـد تـوزيعهم علـى الوحـدات القتاليـة. وهكـذا، طيلـة مــدة التــدريب، لــم أرَ ســوى المــدفع 52 ملــم، مــداه قرابــة الثلاثــين كيلـومترًا... والبـاقي كـان مجـرد تخمينـات وصـور شـاردة فـي الصـحف، دون إنترنت أو مصادر تروي فضولنا أو تفسر مصيرنا.

واظنهم تقصدوا على عدم شرح هذا المدفع لنا ولم يبينوا صورته لنا، حينها قال لي المدرب المسؤول عن الفصيل بعد أن سألته عن نوعية المدفع الذي نسبت إليه، قال:.....

- أنه مدفع 120 ملم ثقيل، ماذا تبغي أكثر من ذلك؟

كان شغفه أن يخلّص نفسه من المسؤولية، أن يُسجّل التزامه في دفاتر الرؤساء دون أن يلتفت لما سأواجه من مصير. أراد أن يسمع الثناء من المعنيين ومرؤوسيه، أن يُظهر انضباطه داخل أسوار معسكر المحاويل، بعيدًا عن خطوط النار. إن لم ألتحق بالموعد المحدد، فسيُضطر إلى ترشيح بديلا عني، وهذا ما لم يشأ أن يواجهه. لذا غشني وأوهمني بنوعية المدفع، لم يوضح لي التفاصيل، خشية أن أجادل أو أفكر بالفرار.....

"وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شرٌ لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون." صدق الله العظيم.

في سيطرة القرنة، حدّدوا موقعي بناءً على خارطة توزيع القوات في قاطع الفيلق الثالث، فأرشدوني إلى سيطرة الدير. انتظرت هناك، في الزرجي شرق القرنة، قرابة ساعتين حتى أقلّتني عجلة زيل نحو خلفيات لواء المشاة 503. هناك، الموقع يعتبر حلقة الوصل التي تقودني خطوة نحو المصير، ومنها انتقلت بعجلة "إيفا" الفرنسية إلى خلفيات البطارية المدفعية 120 ملم، المقسّمة إلى ثلاث رعائل متجحفلة مع أفواج اللواء الآلي 503.

وأخيرًا، وصلت إلى خلفيات كتيبة مدفعية الهواوين. استُقبلت من مكتب البطارية ومجموعة السواقين، وبقيت ليلة كاملة في مقر الوحدة، قبل أن يُحوّلوني صباحًا عبر عجلة زيل الروسية عجلة

"القصعة" الخاصة بالرعائل، لأنسب إلى الرعيل الثاني، المتجحفل مع الفوج الثاني من لواء 503.

لا تسعني الكلمات أن أصف ما اعتراني وأنا أُقاد على متن القصعة (الزيل الروسية) صوب الخطوط الأمامية للجبهة لأول مرة. كل خلية في جسدي ارتجفت وتصلبت، الرهبة تلبّستني كما تتلبّس النار الورق، أحسست بقشعريرة تسري في أوردتي، تغيّر لوني، ضمرت عزيمتي، غاب عني إدراكي لذاتي، كأنني كتلة تتدحرج مع الريح العاتية، حتى شعر جسدي انتفض كمن لامسته شحنة مغناطيسية صاعقة، وأنا أرمق بعيني ما تبقى من عجلات محترقة ودبابات مفحمة في ساحة معركة مضت.

كان فكري ممزقاً، مشوشاً، الطريق أمامي بلا ملامح، عيناي جافتان من النوم، تحدقان في قفر الصحراء الموحشة، وقلبي ينبض بإيقاع لاهث، كأنه يركض على وتر الخوف. وجدت نفسي أترنّح في دوامة الشتات، بعدما خمدت في داخلي شرارة التفكير، وتعذر عليّ استيعاب الواقع الجديد. أصبحت الحقيقة قريبة حد التلامس، والمسافة نحو المصير المجهول تلاشت كبرق ذاب في جوف الافق، لا يفصلني عن الواقع سوى حاجز رقيق من اليقين بالله، ومن رحمةٍ تتناثر في الأجواء كنسيم أمل.

كان المشهد مهيباً، ترتجف له الأرواح، ترافقه دويّات انفجارات متباعدة، تعبق برائحة الموت، وتخلف وراءها دخاناً كالهباب، وتتخللها إطلاقات نارية متقطعة، صداه يطرق صوان الأذن وجدار القلب فيصيبه بالوجل، الآليات العسكرية المعطوبة والمحروقة متناثرة على جانبي الطريق، صامتة لكن شاهدة على شراسة النزال السابق.

بعد ستة أشهر من معركة شرق البصرة الأولى، التحقت بالجبهة، والأنين لا يزال يتردد صداه في جنبات الأرض، يحمل آثار الدماء

والمعاناة التي لم تندمل بعد. كانت الجبهة مضطربة، يتخللها الفوضى والارتباك من الطرفين، مشاهد مروّعة تجفل الناظر، إذ تناثرت الجثث والآليات المحطمة في أرض الحرام وساحات القتال بين حجاباتنا وحجاباتهم.

سرعان ما انتقلت إلى الوحدة الخلفية للفيلق، ثم إلى خلفيات كتيبة الهاون، حيث قضيت ليلتي الأولى في خيمة تضم سبعة جنود وسائقين وضابط صف. تزاحمنا فيها بأمتعتنا كخراف ضائعة، ليلة ثقيلة حملت منذ بدايتها مؤشرات الواقع القاسي الذي ينتظرني. ما زلت أذكر كيف امتدت يد السائق البغيض سجاد في جنح الفجر، لتعبث بقضيبي وأنا مغشي بالنوم إثر تعب الطريق الطويل الذي تجاوز 600 كيلومتر. انتفضت حينها وصفعته، لكن تلك اللحظة كشفت لي خواءًا من نوع آخر، حجم السقوط الذي سأضطر للتعامل معه كل يوم.

شعرت بالضيق الشديد حين علمت أنني الوحيد في الوحدة أحمل شهادة جامعية بين المراتب، إلى جانب الضابط المسؤول الذي كان ضابطا احتياطياً تخرج من كلية العلوم قسم الفيزياء.

في اليوم التالي، نُقلت بعربة القصعة إلى الخطوط الأمامية ضمن الرعيل الثاني. قضيت نحو ساعتين من العذاب الجسدي، بفعل المطبات والمنحنيات التي خلخلت أركاني، والغبار الذي تلبدت به أجسادنا من التربة المطحونة بسرف الدبابات والعجلات كدقيق الخبز، تصاعدت مع دوران العجلات لتغمرنا بريح صفراء هائجة، اجتاحت العربة المفتوحة قمارتها، لتملأ صدورنا وشعورنا وأجسادنا بالغبار المصفّر الذي أصبح لون الحرب وسيمتها.

أخيرا وصلت إلى رعيل الهواوين الثاني بهيئة شبح، حيث جزيئات الغبرة ملتصقة في الشعر والهدب والأنف، ناهيك عن ما ترسب منها على البدلة والبسطار..

في الرعيل الثاني، بدأت أتعرف على زملائي من المعينين ومَخْابَري الوحدة، الذين يتقاطع عملهم بشكل مباشر ويومي في إطار المهمة المشتركة. أما قداحو الوحدة، فكان ارتباطهم بنا أقل قرباً، نظراً لتباعد ملاجئهم عن موقع القيادة الذي نجتمع فيه خلال تنفيذ المهام.

كان هناك أيضاً ضابط الصف المسؤول عن الشؤون الإدارية، بالإضافة إلى آمر الوحدة الذي يظهر عند الضرورة. وخلال استطلاعي، تبين لي حجم النقص الكبير في الكوادر والمعدات؛ فقد تم تقليص حجم البطارية من أربعة رعائل إلى ثلاثة، كما خُفّض عدد مدافع الرعيل الواحد من ستة إلى أربعة مدافع، لتغطية أكبر امتداد ممكن من جبهة القتال التي تبلغ نحو 700 كيلومتر.

أصبحت تركيبة الرعيل ناقصا جزء، كما قُلِّص عدد القداحين في الحضيرة من عشرة إلى ستة أو سبعة جنود في أفضل الأحوال، والمَخْبَرون من ستة إلى أربعة، والمعينون من أربعة إلى ثلاثة، بل أحياناً إلى اثنين فقط: أحدهم في المرصد والآخر في موقع القيادة. وإذا غاب أحدهما، يتبادل أحد الضباط موقعه معه، فيحل المعين مكان الضابط أو الضابط مكان المعين، لا سيّما خلال الإجازات الدورية.

في أولى مهمة لي ضمن صفوف الرعيل الثاني، وبينما كانت الشمس تلفح وجهي بنيرانها، اتجهت في وضح الظهيرة صوب مقطورة الماء، حاملًا قربةً فارغة لأملأها بماء الشرب والطهي. كانت المهمة دورية لخطورة الموقف، رتّبنا لها جدولًا بين الجنود الحضيرة، إذ دائما العدو يستهدف تلك النقطة.

وما إن وصلت، وأمسكت بصنبور المقطورة لأملأ "الجليكان"، حتى دوّى انفجار امامي هزّ الأرض تحت قدمي. لم أسمع صفيرًا، لم يسبقني همسٌ ولا تحذير صوت سقوط القذيفة. قذيفة هاون 60 ملم،

من النوع الأخرس. إذ سقطت على بعد متر أو اثنتين مني، صامتة وغادرة كالقدر.

عندها ارتفعت سحابة من الغبار والدخان، رمادية تميل للبياض، عانقت الفضاء كأنها ابتلعت الأفق. ومن بعيد، كان أفراد الوحدة يترقبونني، وعيونهم لم تفارق خطواتي، ما أن أنفجرت القذيفة حتى هرعوا صوبي مذعورين، تتملكهم الصدمة والذهول، اغشت بصائرهم الغبرة والدخان.

لكنهم ما إن أبصروني أسير إليهم بقربتي المملوءة، معافى بكامل صحتي، حتى انعقدت ألسنتهم وتوقفت خطاهم، مندهشين، مذهولين وكأنهم يشهدون معجزة تُحكى ولا تُفسّر.

قال لي المخبر سليم، بعد عودتي لموقع القيادة، وهو يرتجف إيمانًا: ..

- ربك سترك، القذيفة قاتلة وكانت قريبة جدًا منك، الحمد لله على سلامتك، والله أنت مصان من الرحمن."

وقفت حائرًا، أتساءل كيف لم تُصبني شظية؟ لا حاجز بيني وبين موضع السقوط، حتى المقطورة ذاتها لم تُمسّ رغم ضخامتها. هل كانت منعة الحديد؟ أم أن هناك يدًا خفية أزاحت الأذى؟ ربما دعاء الوالدين، أو محبةٌ كُتبت في السماء، كانت لي درعًا في لحظة لا يُكتب فيها إلا الأجل.

المقطورة المائية كانت هي الوحيدة لنقل الماء، وهي مقطورة صغيرة تُجرّ بواسطة عجلة قيادة من نوع "واز" أو "كاز 66"، كلاهما مخصص لسحب المدافع. كانت هذه المقطورة خاصة بوحدتنا والفوج المشاة الذي كنا نتجحفل معه، لذا كنا نعتمد عليها اعتماداً كبيراً.

انتشار الوحدات: تمركزت مدافعنا وسط سرايا الفوج الثاني من اللواء 503 مشاة، في مقدمة الجبهة، على مسافة لا تتجاوز كيلومترًا واحدًا إلى كيلومتر ونصف من ساتر الحجابات. من الجهة اليمنى تحيط بنا كتيبة دبابات بمستوى رعيل، أما المشاة فكانوا منتشرين أمامنا وعلى يسارنا.

هيكل الجبهة: خُطّت الجبهة على الأرض بسلسلة من السواتر الأفقية المتداخلة، تجاوز عددها عشرة، يتراوح طول كل ساتر بين 100 إلى 150 مترًا. صُممت هذه السواتر لضمان سلامة الجنود أثناء تحركهم وتحرك الآليات العسكرية. "اللوجستيات الحيوية" كان من الضروري إيصال المؤن إلى الخطوط الأمامية لإدامة المعركة، مثل عجلات القصعة، وعجلات تزويد الدبابات بالوقود والعتاد، بالإضافة إلى الآليات المخصصة لنقل الجنود، وكل منها يؤدي دورًا لا يمكن الاستغناء عنه في استمرارية المعركة.

الموقف الثاني الذي طرأ أمامي وحكمت الظروف أن أكون في الموضع لأكون بطلا فيه؛ عندما كلفت من قبل آمر الفوج الثاني التابع للواء 503 مشاة والذي كنا متجحفلين مع فوجه، بمتابعة دورية استطلاع تابعة للفوج كانت قد دخلت أرض الحرام للقيام بواجب الاستطلاع في تلك الليلة الدامسة، السدفة، الدهمة، كانت قد تاهت الدورية في خضم القتامة بعد أن أصيب افرادها بلعنة العشو الليلي، بقيت تلتف حول نفسها أمام فصائل الحجابات دون أن تتمكن من معرفة مساربها،

تخرج هذه الدوريات لمراقبة تحركات العدو عن كثب ومحاولة التصنت عليهم قدر الإمكان لمعرفة قدراتهم ونواياهم وتحركاتهم القادمة.

ولشـدة الحلكـة التـي غطـت الأجـواء: اضـحت الليلـة دجنـة، فاحمـة، سـوداء، جعلـت جنـود الدوريـة يختلفـون فـي الـرأي، اصـيبوا بعشـو ليلـي، تاهـت علـيهم الاتجاهـات والمسـارات فصـاروا يـدورون فـي فلـك العتمـة دون أن يتمكنـوا مـن إنقـاذ أنفسـهم، تملكهـم الخـوف مـن الخطـأ وهـم يـدورون فـي حلقـة مفرغـة مـن الحيـرة والعنـاء بعـد أن أظلـوا. فبـدل الرجـوع صـاروا يتقـدمون نحـو العـدو وبـدل الاتجـاه اليمـين توجهـوا يسـارا وهكذا دواليك. حتـى الحك الـذي يعمـل علـى أضـواء النجوم توقـف عـن العمـل للسـواد الـدمغ فـي الأفـق، أضـحى لا يجـدي نفعـا مـع تلـك القتامـة. لـذا انحرفـوا عـن أصـل مسـارهم، كمـن عصـبت عينـاه فـي وسـط دائـرة. مـا كـان يخـيفهم هـو انحـرافهم لحـوض الألغـام المحيطـة بهـم، وكانـت قـد أظلـتهم غمامـة شـك وهـم يتنقلـون فـي دواخلهـم مـن موقـف لآخـر دون أن يتجـرؤوا مـن تحريـك أقـدامهم باتجـاه معـين. الحيـرة ارهقـتهم وهـم يتحركـون بخطـوات قليلـة، محسـوبة، وسـط حقـول الالغـام تحـيط بهـم مـن الجوانـب. توقفـت عنـدهم المشـورة وتلبـك الفكـر؛ توقفـوا الريبـة مـن الخطـأ قيـدتهم فـي أمـاكنهم، أي خطـأ يرتكـب يـودي بهـم إلـى التهلكة.

كانـت ليلـة الخمـيس علـى الجمعـة مـن شـهر نيسـان عـام 1983، عنـدها اتصـل بـي أمـر فـوج المشـاة الثـاني طالبـا منـي تتبـع دوريـة حجابـات المشـاة الـذين أصـيبوا بـدوار العتمـة، فـي بقعـة يمنـع فيـه الخطـأ بـين حجاباتنا وحجابات العدو.

حينهـا كنـت جالسـا فـي المرصـد برفقـة جنـدي المخابرة سالم؛ قال لي بالنص:...

- دوريـــة الاســـتطلاع تائهـــة أمـــام الحجابـــات لا تســـتطيع العـــودة لموقعهـا، يرجـى تتبعهـا وارشـادها

لطريق العودة، الدورية مكونة من ملازم وعشرة جنود مشاة.

- حاضر سيدي دقائق فقط..

جلستُ أمام المرقب الليلي في ليلة ربيعية لطيفة، الهدوء يخيّم على قواطع الجبهة. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف، وبتُّ أراقب تلك العتمة مترقبًا حركة أفراد الدورية. رصدتهم أخيرًا، وأبلغت عن موقعهم عبر المكالمة اللاسلكية، بمعية المخابر سالم.

كانوا يتحلقون حول الضابط في جلسة قرفصاء، يعلو سلوكهم التوتر وتكبلهم الحيرة. تحركاتهم مرتبكة، يتجهون يمينًا ثم يعودون ادراجهم، يتقدمون نحو العدو ثم يتراجعون، يدورون في مساحة لا تتجاوز عشرة إلى عشرين مترًا، وكأنهم عالقون في حلقة مفرغة.

الخوف شلّ ثقتهم بأنفسهم؛ فالمسافة بين موقعهم والعدو قصيرة جدًا، لا تُقاس إلا بالأمتار. خشيتهم من الوقوع فريسةً للظلام أو لحقل ألغام مجهول كانت تحاصرهم، خاصة والعدو يمتلك هو الآخر مرقبًا ليليًا قد يكتشفهم ويستهدفهم. احتمال الاصطدام بدورية عدو في تلك العتمة المرعبة لم يكن بعيدًا.

الجميع مدركٌ لضرورة الحذر، لكن في تلك اللحظات، سيطر عليهم قلق غير طبيعي، ناتج عن غياب الحكمة وغياب حسن التصرف والدراية والرشد والنظر.

ما إن اتصلتُ بهم حتى هدأت قلوبهم، وتمسكوا بحبل الوصل، فازدادت ثقتهم بأنفسهم وإيمانهم الحتمي بالنجاة. هجست بهم تهللوا فرحا من اصواتهم، أصبحوا يُصغون لكلماتي وأنا أرشدهم نحو المسار السليم. صرت ارشدهم وهم يتبعون المسار، أُحدد لهم خط السير وسط هذه المتاهة القاتلة.

ذلـك المســار المحفـوف بــالخطر هـو خنــادق ضـيقة، محفـورة بعمـق قـدم، تتعـرج بـين حقـول الألغـام كأنهـا متاهـة لا تـرى نهايتهـا. إن أخطـأ أحـدهم وخـرج عـن المسـار، سيتعثر ويسـقط علـى حافـة الأخاديـد، حيـث قـد يفجـر الألغـام التــي تحـيط بالمكــان، ويغـدون فريسـةً للعتمـة أو للاخـتلال الـذي لا يرحم.

السـماء ملبـدة، والقمـر فـي سـبات، والليـل فـي أشـد حـالات السـواد، حتـى العـين لا تميـز الأشـياء علـى بعـد عشـرة أمتـار. السـكون يمـلأ الأجـواء، والمسـافة بـين مواقعنـا ومـواقعهم لا تتجـاوز مئتـي متـر. المنطقـة برمتهـا مزروعـة بالألغـام مـن قبـل طرفـي النـزاع، فـي محاولـة يائسـة لكـبح فعـل الغدر إذا ما أقدم عليه طرف ما.

الدوريـة واقعـة فـي فـخ التيـه بـين تلـك الأخاديـد والشـقوق التـي هـي دلـيلهم الوحيـد للعـودة سـالمين، ولكنهــا خنــادق مفزعــة تسـكنها الشـياطين، متفرعــة بعــدة اتجاهــات، ملتويــة بانحرافــات معقــدة. لا تصـلح للتخفـي وغـش العـدو عـن قـرب، ولا يمكـن التسـتر بهـا ومراقبـة حركـات العـدو. تلـك الأخاديـد المتشـعبة بـين حقـول الالغـام وجـدت لتـرميم تلـك الحقـول وتجديـدها أذا مـا حـدث فيهـا تغييـر، أذا مـا فجرتهـا الحيوانـات الليليـة أو عبثـت بهـا القـذائف العشـوائية أو الانتقائيـة منهـا السـاقطة فـي وسـطها الحقـول.... الـخ. فهـي تشـكل شـبكات هندسـية موزعـة علـى المسـاحة المتروكة بين الجيشين.

المنطقـة التـي أعمـل بهـا تعـود لقـاطع الـدير شـرق مدينـة القرنـة، الأرض أرض تيـه لتشـابه أجزائهـا علـى المـدى الواسـع مـن كـل جهاتهـا، أرض ترابيـة، مسـطحة ممتـدة بانبسـاطها مـع النظـر، بحيـث لـو وضـعت بيضـة علـى بعـد كيلـومتر لتشـاهدها بـأم عينـك، لاسـتواء الأرض تمامـا. وأغـل مـا فيهـا الأَتَاوِهَـة المتشـعبة فـي الأرض وفـي الـنفس. حيـث لا عبـث بهـا

سوى تلك السواتر المشيدة من قبل الوحدات العسكرية لتحميهم من عبث الشظايا وغل الرصاص العشوائي المطلق عليهم.

كان موقعي يبعد عن الحجابات مسافة كيلو متر أو أقل، نتحصن خلف ساتر صغير، تقطن الى جانبي بمسافة 100 متر يسارا دبابتان من كتيبة الدبابات، إلى يميني فوج مشاة آلي. السواتر مشيدة على شكل قطوع منفصلة ومختلفة اطوالها حسب الوضع، تبدو للشاهد عن بعد على شكل مدرج لتساعد المشاة على الحركة والتقدم والتخفي خلفها في حالة الهجوم والهجوم المعاكس، أو في حالة التقهقر لمواصلة زخم المقاومة وتفعيل القتال. بالإضافة إلى أنها تساعد عجلات المؤن من الوصول للقواطع الأمامية.

على أية حال تمكنت من التقاط الدورية بجهاز المرقب الليلي بعد أن تمكنت من الاتصال بهم لا سلكيا بواسطة المخبر سالم.

المرقب هو جهاز يعمل تحت الأشعة الحمراء السينية لرصد الأجسام ذات الانبعاث الحراري، كبير الحجم يقارب قطر العدسة 25 سم وارتفاعه 50 سم. يعمل لكشف الأجسام ذات الانبعاث الحراري كالبشر والحيوانات والعجلات والدبابات المتحركة..

كانت الدورية في وضع مزري عبثي غير مريح، بحيث حين أرشدهم يمينا يتجهون يسارا واذا ما وجهتهم للأمام يتراجعون للخف، وأن طلبت منهم أن يتخذوا يدهم اليمنى دليلا لهم يتشتتون في الاتجاهات الأربعة لأنهم لا اتجاه لهم في وقفتهم، وهكذا دواليك تعسرت الحالة عليهم..

خلال المحادثة تمكنت من أن أفهم الملازم بأنه يتخذ القرار المعاكس لإرشادي لهم. وكانت النداءات تجري بالسياق الآتي.

- خذ جهة اليمين مسافة عشرين مترا، يوجد أمامك منعطف فيه أتجاهين، اتجه لجهة اليسار.
- اتجه يسارا...
- قف مكانك، تراجع، عد باتجاه المعاكس، توقف أنت تتجه لجهة العدو، سر بعكس اتجاهك للخلف. عد عكس اتجاهك للخلف عشرة امتار. أحذر من حقل الألغام في اليمين.

رجع يمشي ببطء وكأنه غير واثق من التوجيه.

وصل المنعطف واتخذ جهة اليمن.

- خذ يسارا مسافة عشرة أمتار، أمامك فتحة أدخل بها واتجه إلى الجهة المقابلة، أمشي خلال الخندق مسافة عشرين مترا بخط مستقيم، توقف، أمامك مدخل باتجاه حجاباتنا يوجد بجانبه شاخص خشبي، أدخل منه، الطريق ينحرف باتجاهين يمينا ويسارا، أنحرف لجهة اليسار، بجانبك اسلاك شائكة تابعة لحجاباتنا، سر بمحاذات الأسلاك عشرين متر، الآن أتجهه يمينا ستدخل لبوابة الحجابات.

كنت اتكلم وهو يسمعني وينفذ المطلوب منه. يسير حسب توجيهاتي حتى وصل الفتحة ثم دخل فيها، كانت المسافة بين الشخص الأول والأخير قرابة عشرين مترا، وما أن تعرف على مدخل الحجابات حتى شكرني وقال لي.

- شكرا لك يا طيب وصلت.
- اصحابك خلفك لازالوا لم يدركوا الفتحة.
- سيتعرفون على الممر من خلال الصوت، سأنادي عليهم.

كان خوفنا أن يقعوا فرسية قنص العدو وهم لا يعرفون اتجاهاتهم، لكن الله لطف ولم تكن في تلك الليلة دورية قريبة من المشهد سواهم.

أخيـرا تمكنـت مـن ارشـادهم وإنقـاذهم مـن شـباك العتمـة والاسـلاك الشائكة وحقل الألغام.

أجمـل فـي الـدنيا عنـدما تقـدم خدمـة لمحتـاج، أو تنقـذ إنسـان مـن مصـيبة وهـي قمـة السـعادة. يقـول الله ﷻ فـي هـذا المجـال" يَـأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـوْنَ عَـنِ الْمُنكَـرِ وَيُسَـارِعُونَ فِـي الْخَيْـرَاتِ وَأُولَٰئِـكَ مِـنَ الصَّـالِحِينَ" صدق الله العظيم"....

حينهـا كنـت منتسـبا جديـدا كمـا ذكـرت، أنهـا اول مشـواري فـي الجبهـة، بعـدها صـرت انـزوي فـي حجـري، فـي ذاكرتـي وعـاطفتي، اراجـع نفسـي، أجـدها تهتـز مـن المحيط الـذي يرعبنـي، حيث سـكن الخـوف فـي ذهنـي وقلبـي، صـرت لا أجـازف بـالخروج إلا لأمـر طـارئ جـدا، أنعكـس ذلـك علـى سـلوكي داخـل الرعيـل، ولكـن مـع مـرور الايـام تعـودت علـى الظرف وصرت اتعامل معه بحرفية.

بعـد أسـبوع واحـد، نُقلـت إلـى موقـع الرعيـل الأول، وكـان فـي الحقيقـة أكثـر المواقـع تعاسـة وخطـورة، حيث تـم حشـر المرصـد فـي زاويـة بالغـة الحساسـية. كـان يتموضـع عنـد رأس مثلـث قـائم الزاويـة، يرقـب الجبهـة الشـرقية والجنوبيـة فـي آنٍ واحـد، وذلـك عقـب اختـراق قـوات العـدو لسـاتر الحـدود خـلال معركـة شـرق البصـرة الأولـى. خـلال التراجـع احتفظـت بمسـافة تتـراوح بـين كيلـومتر إلـى اثنـين داخـل العمـق العراقـي، ممتـدة بطـول يقـارب عشـرين كيلـومترًا. أمـا مرصـدنا، فقـد كـان يتمركـز عند نتوء الساتر الحدودي من جهة الشمال، تمامًا عند نقطة التلاحم.

فـي هـذا الموضـع العصـيب، عايشـت مواقـف محرجـة وأخـرى قاتلـة، لكـن رحمـة الـرحمن كانـت حاضـرة، حمتنـي مـن غـدر القـذائف. كنـت خائفًـا مـن شـبح المـوت الـذي كـان خـيم علينـا وأنـا أشـاهد الجثـث الملقـاة فـي "أرض الحـرام"، المسـاحة المحايـدة بـين الجيشـين، كنـت أهجـس بـالخوف كالطـائر العنقـاء يحلـق فـوق رؤوسـنا، يـنقض علـى القلـوب

الضـعيفة بـلا رحمـة فـي لحظـات الغفلـة. ذلـك المكـان زرع فينـا شـرود الفكـر، وجعلنــا نحلــق فــي غياهــب الجبهــة والحــدود الفاصــلة، وكأننــا عــالقون فــي ســندويتش النكــل والقتــل، بــين كماشــتين فــولاذيتين شــرق الـدير. المكـان لا يـوحي بالتأمـل، بـل يختنـق بالصـور القاتمـة، خصوصًـا بعد أن انتشلنا عددًا من الجثث عقب المعركة الأخيرة.

فـي تلـك البقعـة المعزولـة، وبعـد معانـاة ومـرار اكتنفتنـا مـن كـل صـوب- شـقاء متواصـل، خـوف لا يهـدأ، قـذارة تـزكم الـروح، وحـر صـيف لا يـرحم- جـاءني حلـم غريـب، كأنمـا انبثـق مـن عمـق ذاك الإرهـاق لينيـر مسـارًا جديـدًا لحيـاتي وتفكيـري. لـم يكـن حلمًـا عـابرًا؛ بـل رؤيـة غرسـت فـي قلبـي طمأنينـة عجيبـة، وفـي نفسـي إيمانًـا لـم أعهـد مثلـه، ظـل يرافقنـي طوال بقائي في جبهات القتال.

لكــن قبــل أن أروي تفاصــيل تلــك الرؤيــا التــي هــزّت كيــاني، لابــد أن أسـتعرض مواقفًـا مـررت بهـا، لـم تكـن مفهومـة حينهـا، وكأنهـا إشـارات مبهمـة تتجـه نحـو شـيءٍ أكبـر، نحـو تفسـيرٍ غيبـي طالمـا راودنـي. تلـك الأحـداث، بمزيجهـا الغريـب مـن القلـق والانبهـار، ربمـا كانـت المـداخل الخفية للرؤية التي ستكشف الستار عن معناها العميق....

الرؤيا

منـذ اللحظـة التـي ارتـديت فيهـا البدلـة العسـكرية، أحسسـت وكـأن جسـدي قـد اكتسـى بجلـدٍ جديـد، جلـد الحـرب والصـبر. لمـع فـي داخلـي شـيء غريـب، لـم يكـن مجـرد كبريـاء مظهـري أو تغيـر فـي قيـافتي، بـل شـعورٌ بـأنني صـرت شـيئًا آخـر، نسـخة أكثـر صـلابة واعتـدالًا، أكثـر خشـونة وحكمــة، وأشــد عزيمــة وإرادة. كــأنَّ البدلــة لــم تكسُــني فحســب، بــل غرسـت فـي جسـدي شخصـية المقاتـل الشرسـة، مـن خلالهـا نسـيت ملامـح

الهيافة والمياعة والرخاوة التي كانت تسكنني، وكأنني وُلدت من جديد في قالبٍ لا يعرف إلا الوقوف في وجه العواصف دون انحناء.

بالفعل العسكرية تهذيب النفس، تربي الرجال، بل هي فتنة الرجال. في ظني من لا يرتدي البدلة العسكرية يبقى يشعر في كيانه ناقص رجولة، اسألوا بذلك الفتيات، حيث في نظراتهن للرجل تكمن تفاصيل قوامه وشخصيته.

بقدر ما كانت خشونة البدلة توخز جلدي، بقدر ما شعرت برقتها وأناقتها ونعومتها الخفية، بسحرها الفاتن، بعزفها الذي يلامس الروح، بجاذبيتها الآسرة. تفصيلها يحاكي الشجن، وتفاصيلها تنطق بالسحر، عمقها لا تراه العيون إلا إذا نطقت الحواس والفكر والجلد الذي يتشح بها. إنها فسيفساء الطيف، تعلو بالشخصية منذ اللحظة الأولى لارتداء البدلة والبسطار، حين يبدأ الفرد بالانتماء للمؤسسة العسكرية. ومع مرور الزمن، تتعمق تلك الفتنة، ويزداد البهاء بفعل التدريب والتهذيب، حتى يتحول مرتديها من كوكب إلى آخر، من سطح إلى غور، وكأنها جوهرة فريدة بين البدل، تمنحه وقارًا واتساعًا وغرابة وقيمة ولمعانًا.

حين دخلت معسكر المحاويل في بابل، تم تصنيفي ضمن قسم المدفعية، بحسب حاجتهم، لكوني خريجًا جامعيًا في علم الرياضيات. أُدرِجتُ في الفصيل المميز، وتم عزله عن باقي الفصائل، فقد كان غنيًا بالشهادات العليا؛ بيننا الطبيب، والمهندس، والإعلامي، والمدرس، وخريجو كلية العلوم. كنا الوحيدين داخل المعسكر نحظى بمعاملة ملؤها الاحترام والتقدير من القيّمين، تفوق بكثير تلك التي نالها باقي الفصائل.

لا أستطيع أن أفسّر تمامًا الحالة التي اجتاحتني أثناء مشاركتي في أتون حرب القادسية؛ كأن بعثًا جديدًا اختطفني في لحظة غفلة،

لينتشلني من غموض لا مرئي إلى حضن الواقع وقد اغتسل بفيض ميتافيزيقي عصيّ على الفهم. ريحٌ صرصرةٌ شرعت في حمل أسفاري كما لو كانت ريشة طير، لتقذف بي نحو مطحنة الشك والوجل، وتفتك بي ذهنًا وجسدًا، فتتخذ أفكاري من علم اللاهوت سبيلًا للهروب، بينما يتقوقع جسدي كحالة استثنائية في محله، متخذًا من عالم الناسوت قدره المكتوب.

بتلك الحيثيات المتداخلة، أصبح الظرف الذي أحياه أقرب إلى العالم المقدّس، فارتقت حالتي إلى مستوى من الارتقاء اللاإرادي؛ حالة غريبة امتطت ذهني وجسدي كمقاتل، وأودعت في روحي نَفَسًا ظلّ يسبح في دوامة التأمل والتمجيد. ومع عصف الوحدة، جنحت نفسي نحو قوقعة الحيرة والتفسير، وبحثٍ لا ينقطع عن الثبات واليقين والمستقبل.

دعني اشرح الحالة...

حين نهشني القلق الناتج عن هوام الشك، بدأ الوجل يطرق أبواب فكري بعصا الخوف من المجهول الذي يسكنني ويشاركني ذات الظرف والقدر. كنت أهجس بذلك الوجل القادم من أعماق الظن السيء والاستسلام المذل لمعنى اليأس. هذا الوجل كان يختبئ في ثنايا الروح، يتسلل إلى مسارات الذهن، ينام في شقوق القدر وبين تجاعيد العمر، دون قدرة مني على تغييره؛ لأنه يأتي من واقع لا يُلمس لواقع ذهنيٍّ ينام في أطياف الجفون، يخامرني، يراوغني، ويرسل لي رسائل تحذير وتشاؤم وحزن.

كنت أشتم رائحته قبل أن يصل، فأنكمش على نفسي بقيود من الرعب، مرميًّا في بوتقة الصخب والفوضى، مغتسلًا بالحزن واليأس، مأسورًا بالوجل من هذا المجهول الذي يطوف حولي بين تساقط القذائف بشكل عشوائي وتوقيعي. رأيت نفسي كحشرة بلا قيمة،

كخنفساء أو عقرب يمكن أن يُدعس عليها في أي لحظة، دون سابق إنذار.

كنتُ أعيش في ظلّ هاجسٍ يتعقّبني، يلازمني كظلي، يشاكسني حين أظن أني بعيد عنه، له في نفسي وقعٌ مزلزل؛ دخانٌ من الحيرة والعناء يتكوّر في فكري، يرسم وجودي كلوحة هلامية تمثّل كابوسًا دائمًا، يطرق حلمي دون إذن، يدور حولي بأشرعة سفر غاربة على خطوط الجبهة، يطوف بين المقاتلين كتحذيرٍ مبهم من ظلٍّ قادم، كأنه يراني وحدي، يتقصّدني، يهمس في أذني نذرًا من قلق لا ينطفئ.

هكذا كنت أعيش يومي؛ لا يقين، لا سكينة، فقط انتظار مشوب بالتوتر. ارتباكي كان كثيفًا، حتى خيوط الجنون والشجون تداخلت وتشابكت في أوتاد فكري، زرعت إسفينًا في قلبي، جعلتني أسترجع اللحظة القادمة ألف مرة قبل أن أخطو نحوها. تساءلت: إلى أين؟ وكل الاحتمالات أمامي كانت متشظية بالجنون والوساوس... الهرب؟ المرض؟ الاستسلام؟ وكل خيار يقود إلى هوة لا قرار لها.

ما الذي قيد سعيي؟ قد يكونان والديَّ. لو هربت، سيكون مصيرهما المواجهة مع الدولة في عمر لم يعد يحتمل المواجهات. ولو استسلمت، فإن العدو لن يمنحني فرصة ثانية. هكذا وجدت نفسي بين المطرقة والسندان، بين واجب البقاء وخوف الرحيل، بين صمت الجبهات وضجيج الكوابيس.

دائما ما كنت أستشعر بحرارة اللحظة المارقة قبل قدومها، ربما لهاجس السحر الذي أتصف به، أو لهاجس الزن الذي يركب ذاتي فينتاب حظي بلجة عصيبة، مرة، رتيبة.. فلن تمر اللحظة إلا بشفير رهبة تجرح الخواطر، لن تأتي إلا بقتر وقدر هجين، ينم عن جدل لا صلة له بالمستقبل والرغبة والأماني والأحلام قط، لا تدعني أتنفس

هـواءً طبيعيـا كبـاقي البشـر، فتلـدغ ظنــي كعقربـة سـامة تشـل قـدراتي عـن التفكير بالمصير.

ذلـك القلـق المغـل دخـل عـالمي وأجـواء ظنــي كالسـهم، ارتديتـه كقمـيص نــوم وارتــاد تطلعــاتي وأحلامــي كصــرة عبــث. أضــحت ليــالي تعشــق مرافـق السـهد لشـدة يأسـي واضـطرابي، بـل صـارت تنحـدر بـي نحـو وهـدة الشـك والجنـون والتفكيـر الفعلـي بـالهرب مـن واقـع الجبهـة لأنجـد ذاتـي مـن الجنـون الـدائر حـولي... لـيس جبنـا ولا شـجاعة، لـيس لهـا علاقـة بـالموت، ربمـا المـوت هـو المصـير المتفـق عليـه بـين المقـاتلين، ولكـن الهـروب مـن الوحـدة والـروتين واليـأس والجحـود والجمـود الطـارئ فـي المشـهد الـذي كنـا عليـه الغيـر مـألوف. ربمـا ياسـا واستسـلاما لمشـاعر وأحـلام الطفولـة التـي كنـا نرسـمها علـى الجـدران المدرسـة كـي لا ننسـى أمانينـا، كـأني أودعـت ذاتـي المسـكينة رهينـة القـدر فبـت أعجـز عـن إيجـاد حلول لها، أعجز أن حرك عجلة الفكر عن الهوة التي غطستُ فيها.

اسـتمر ذلـك القلـق فـي تفاعـل تـام وتنـاغم مـع الفكـر واللحظـة المارقـة والمحـيط الـذي يـأويني، ممـا صـرت أزداد قلقـا يومـا بعـد يـوم، صـار ربيـب الـذات؛ حتـى يـوم أن طـرق ذهنـي ذلـك الحلـم الغريـب، غريـب بشـكله وصـفاته ووقعـه، غريـب بفكـره وبعـده وقوامـه، لينتشـلني مـن وحـل تفكيـري ويأسـي بالقـدر الـذي كنـت عليـه لغايـة تـأملي وهيـامي وصـبري والقدر الذي جاء به....

فأنــا لا أسـميه حلمــا أبـدا، أنمــا رؤيــا بكـل محتواهــا وابعادهــا وعمقهــا وحـدودها الغيـر متناهيـة... رؤيـا عميقـة فـي تأويلهـا، واسـعة فـي قـدرتها ومســاحتها وقــدرها، بعيـدة كـل البعـد عـن الواقـع والظـن والظـرف فـي نتاجهــا وتفســيرها ومعانيهــا.... رؤيــا مــن فسيفســاء الأمـل والصــباحات المشـــرقة الدافئــة بأشــكالها وأبعادهـــا وتكويناتهـــا ولهفتهـــا وعشـــقها وحلاوتها.....

تلك الرؤيا مرت على الجفن كطيف المساء محملة بالودق والرشق والمطر والخير وهي ترتدي حلة الآلماس والجواهر والخواتم الذهبية، متبرجة بود براق وبهرجة كهنوتية ربانية بكل صفاتها، كاللحظة المحملة بعقود الياسمين والورد والنرجسية، عبرت خنادق اليأس وبحار الحزن بصمت الخواطر من الحدود إلى الحدود فجزلت الوجل والقلق من القلب، لململت كل مخلفات الخوف والرعب والارتياب لترميها في سلة اليقين خلف حاجز الزمن، لتجعلني أقف على ناصية الاطمئنان، رسمت لي المصير بعلاقة مرنة بين الذات والله والقدر والمستقبل...

بعد ذلك الحلم، وجدتني أطير في حقل السنابل، كطفل يلامس راحة الصبر وهدوء السكينة بشوقٍ يفيض بالحنين. بدأت أميز خيوط الشك من خيوط اليقين، بل زاد يقيني بالقدر، وبما خُطَّ في لوح الأقدار. تعزز إيماني بالله، وبالوجود، وبالنجوم والسماوات والآخرة، فكل شيء بدا لي مكتوبًا ومقدرًا. واستقرت ملامح الحياة بوضوح على شبكية عقلي. مرّ الحلم كمن يقرأ طالعي في ضرب الرمل، وفي ما نُقش على راحة اليد، وما كُتب على الجبين.

غاص الحرث عميقًا في بئر الأمل والفكر، دار في مخيلتي بهدوء وطمأنينة، كأنه رؤيا نبيلة تبتسم للحياة، كحقل أخضر يفتح صدره لأشعة الشمس، برحابةٍ وشوقٍ عذب.

كان الحلم كمجموعة جواهر لاهوتية تعثرت بها، فانفلقت أمامي، لتفتح لي أبواب الحياة المليئة بالفتنة والرحمة والاستواء، بالرغبة والتواصل، بالأمل واليقين بالمستقبل، وبالسعادة. أحاطني بسياج من الأمن والإيمان، جعل الطرق أمامي سالكة، تنعم بالدفء والسلامة.

حلّ الحلم كطائر مهاجر أضناه تعب الفكر، فحط على غصن شجرتي يلهمني أملًا جديدًا لغدي، كقدرٍ شفيف تسلل في مسرى حياتي، كصفة

ملهمة بعالم الغيبيات غيرت من شكل أقداري، جعلني أتنفس الحياة والوجود، أوطد السكينة في أعماقي بشكل نم عن صيغة جديدة للحياة. وصفة روحية من عالم الغيب غيرت ملامح أقداري.. جاءني من جوف المستحيل والخيال المطلق، لينزع عني أسمال الخوف، وينتزع من قلبي أوتاد الشك والوجل، ويدثرني بطمأنينةٍ دافئة امتدت طوال فترة بقائي في جبهة الحرب. زاد يقيني وثبّت عزيمتي، وعزز تبجيلي وحبّي لآل البيت.

ران الحلم أمامي بسلسلة من الصور، لم أكن لأصدقها أو أتصورها، لولا أنني كنت بطلها وسط ظروف حالكة وقتال ضارٍ، اجتاحت جبهات الحرب بانفلاتٍ عقديّ، حينها كنت أعمل كالرحى بين رصد واقع الجبهة وإدارة موقع قيادة الرعيل، ليكون الحال المستتب في الوحدة على أفضل حال، حيث المسافة بينهما لا تتجاوز في أفضل الأحوال 2-3 كيلومترات.

وبسبب قسوة الظرف، وبؤس المكان، والخطر الدائم الذي رافق الحدث، ولدت تلك الحالة الجدلية من القلق، أو العبثية أو القدرية كيفما تشاء في نفس الانسان لترشق الذات وتنشره على حبل الزمن كما تُنشر الثياب تحت شمس لاهبة على حبل الغسيل. إنها حالة انفصام بين الروح والجسد، تلاحقها تكهنات غريبة لا تفارق الذهن، تنبع ربما من لحظة غفلة داخل رحم القدر.

لقد كانت حالة غياث توافق الظرف في مواجهة المصير، وأكاد أجزم أنها مرت في فكر كل مقاتل على الجبهة، لكنّها جاءتني بطريقة مختلفة، وباهتمام فريد، لأن اللاعب فيها لم يكن من عالم الواقع، بل انبثق من عمق المستحيل، من طبيعة اللاهوت وأبعاد المطلق، ذلك اللامتناهي الذي لا يطرق أبواب كل مقاتل إلا إذا كان يحمل في داخله صلة خاصة بالمعنى، وبحدث أراد له الله أن يكون.

كـان المرصـد المحـدد لوحـدتنا يـركن بموضـع عقـيم، خطـر، محبـوك بالسـف والخـوف والقتـل والنكـل والعـذاب النفسـي علـى مـدى أربعـة وعشـرين سـاعة، كنـا نواجـه العـدو علـى واجهـة ضـلعي زاويـة قائمـة مـن الأمـام والجانـب الأيمـن، مـن الشـرق والجنـوب. تصـور أحيانـا نقصـف مـن جهـة الأمـام فـإذا مـا تجاوزتنـا القذيفـة فأنهـا تنفجـر علـى الضـلع الآخـر للعدو في الجبهة الأخرى اليمنى.

كـان المرصـد قـد بنـيّ علـى شـكل غـرفتين مربعـة يـربط بينهمـا ممـر يختـرق خنـدق السـاتر الـدولي، كـل غرفـة بضـلع عرضـه متـرين وطـول ثلاثـة أمتـار، ليشـرف جـزء منـه علـى الواجهـة الأماميـة الشـرقية وجـزء علـى الواجهـة اليمنـى الجنوبيـة يفصـل بـين الغـرفتين خنـدق السـاتر الدولي...

المرصـد يعتبـر خشـم السـاتر المقطـوع، ليشـرف علـى واجهـة الجبهتـين فـي آن واحـد، الجبهـة الأماميـة تبعـد مسـافة 500 م تقريبـا والجانبيـة تبعـد بمسـافة 350 م. بحيـث معظـم القـذائف المطلقـة يحـاول بهـا العـدو إصـابة المرصـد، كونـه مصـدر مراقبـة وخطـورة دائمـة علـى العـدو فـي الوقـت الـذي بـه يكـون نقطـة انطـلاق نحـو جمـع معلومـات عـن تحركاتـه وبيـان نيـات العـدو. كـان المرصـد فـي موضـع النصـل مـن الـرمح فـي ميـدان المواجهة.

كـان المرصـد الـذي نتـولى إدارتـه يعتبـر نقطـةً مركزيـةً مشـتركةً بـين رعيلنـا ووحـدات المشـاة، ومفتوحًـا أمـام الجنـود والضـباط مـنهم لمراقبـة تحركـات العـدو عـن كثـب. ولـذلك، اعتـدنا أن نـرى بعـض جنـود المشـاة يرابطـون معنـا داخـل المرصـد، ممـا سـاهم فـي بنـاء علاقـات متينـة وصـداقة حقيقيـة بيننـا، بحكـم أن مصـيرنا المشـترك يتطلـب الـتلاحم والثقة.

وبسبب النقص العددي في كوادر الضباط، كثيرًا ما توليت مسؤولية المرصد بالكامل، أو إدارة موقع القيادة، متحملاً عبء المواجهة الذي يفترض أن يكون من صلب مهام القائد لا الجندي. ففي المنظومة العسكرية، تُناط بالقائد مسؤولية الجبهة والفوج الملتحم معه بأكمله، فإذا ما وقع مكروه، فالمحاسبة لا تطال الجندي بل تقع على عاتق القيادة العليا.

كانت المسؤولية جسيمة، تنطوي على مخاطر حقيقية تمس أرواح ما يقرب من 400 جندي من المشاة، ممن وضعوا ثقتهم وسلامتهم في عنق هذا المرصد، فضلًا عن وجود مراصد أخرى تابعة للمشاة والمدفعية بعيدة المدى، لكنها ليست بأهمية مرصدنا الذي يعتبر رأس الرمح في المواجهة، كان هو القلب النابض لذلك القاطع وأكثر نقاطه أهمية وتهديدًا.

كان في كل رعيل يتواجد ضابطان ومعينان، وأحيانا يتواجد ضابط واحد برتبة ملازم أو ملازم أول، وأحيانا بلا ضابط فتناط المسؤولية للمعين ولضابط الصف (نائب ضابط إداري)، وذلك حين يكون الضابط يستمتع بإجازته الدورية أو في حالة استدعائه لموقع الفيلق لحضور الاجتماعات الدورية في دراسة واقع الجبهة...الخ من ذلك القبيل. ففي حالة غيابهم؛ ننوب عنهم المسؤولية إلى جانب ضابط الصف (النائب الضابط ضاحي ابن الناصرية) الذي كان يختص بالأمور الإدارية.

سلامة الجبهة تعتمد بشكل كبير على عمل ضابط الراصد، لذا يتطلب منه الانتباه المستمر، وخاصة أثناء فترة الليل وبالذات في فترة الفجر والغبش منه حيث دائما ما تحدث العمليات الغدر الانتقامية أثناه، دائما ما ينفذ عملياته في لحظات الميتة، كون الجنود لائذين في سكرة الكرى....

بالإضافة لعمل الراصد كمراقب للجبهة واعطاء أمر الرمي، عليه قراءة المشهد باستمرار وإعطاء تقرير شفهي إلى آمر الرعيل؛ فانه مسؤول مسؤولية مباشرة على تامين سلامة الجبهة، من خلال أسناد المشاة ومراقبة حركة العدو وتقدير الوضع العام، أنها مسؤولية جسيمة لا تناط لجندي، لكن الوضع كان هكذا للنقص العددي الكبير في كادر الضباط والجنود، حيث الضابطان المنسوبان على وحدتنا هما من ضباط الاحتياط.

كان لمرصدنا نافذتين تطلان على الواجهتين كما أسلفت، تنتشر أمام النافذتين في أرض الحرام جثث متفسخة لعناصر إيرانية وعراقية مختلطة من تركة معركة شرق البصرة الأولى، جثث صعب على المقتلين اخلائها لحساسية الموقف، أغلبها كانت تخص قواتنا تركت في العراء، دلالة على شراسة المعركة، بحيث صعب على الجيشين سحبها من أرض الحرام لقرب المسافة بين الجيشين المتصارعين.

في الواجهة الجانبية، كانت تنتشر مجموعة من الملاجئ العراقية المهجورة، مبعثرة في أرض الحرام خلف خط الساتر الدولي. بلغ عددها ثلاثة أو أربعة ملاجئ، وكانت تحتوي على جثث متفسخة لجنود فقدوا منذ المعركة الأخيرة. تمكن أبطال فوج المشاة من التسلل إليها ليلاً، وسحب تلك الجثث بصمت، ليعيدوها إلى ذويهم الذين كادت قلوبهم يائسة من عودة أحبائهم بعد مرور ستة أشهر على انتهاء المعركة.

رجال المشاة الذين نفذوا المهمة، كانوا يحملون قلوبًا من حديد، أو ربما بلا قلوب، إذ لا مكان للعاطفة في وجوههم الصلبة وشجاعتهم الفذة. خلال عملياتهم، استطاعوا انتشال عدد كبير من الجثث، لكن واحدة منها بقيت محفورة في الذاكرة: الشهيد الملازم عبد الباسط عبد الصمد، من أهالي قضاء خانقين. اسمه يذكرني بشيخ القراء الشهير،

وربما سُمي تيمّنًا به. عثرنا على جثته في خندق ملاصق للمرصد، وقد دُفن في جدار الساتر واقفًا على قدميه، يده على صدره، كأنه لم يُمنح فرصة للانسحاب أو الهرب أثناء الهجوم الإيراني. يبدو أن جرافات العدو دفنته خلال تسوية الساتر الترابي، الذي بلغ ارتفاعه أربعة أمتار وعرضه ستة، لتسهيل عبور جنودهم. فبقي في مكانه، واقفًا، شامخًا، ربما لأنه كان ضابطا مستجدا لم يملك خيار الانسحاب، أو لأنه من أولئك الشجعان الذين أبوا أن يتراجعوا أمام زخم الهجوم.

لا أملك تفسيرًا دقيقًا لكيفية موت الشهيد وهو واقف، لكن الاحتمالات تتزاحم في ذهني: ربما سرفات الدبابات دفنت الخندق لحظة عبورها الساتر، أو ربما أصيب خلال الهجوم وبقي واقفًا حتى فاضت روحه الطاهرة، دون أن يتمكن من إنقاذ نفسه. وربما اختنق بالغازات السامة التي ملأت المكان... لا أحد يعلم على وجه اليقين.

لكنني كنت حاضرًا حين تم العثور عليه، وشهدت لحظة إخراجه من مدفنه. قرأت بطاقة تعريفه المعلقة حول عنقه، وقد كُتب عليها اسمه، عنوانه، وتاريخ ولادته: 1958. كان ضابط مشاة مستجدًا، لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره حين استشهد. استُخرجت جثته من الجدار، ببدلته العسكرية ذات اللون الصحراوي، وعلى كتفه نجمة واحدة، دلالة على رتبته كضابط مشاة.

شراسة المعركة وبطش السلاح المستخدم من كلا الطرفين رسمت في مخيلتي مشاهد قاتمة من خطوط النار. فقد تمكن العدو من التغلغل في عمق أراضينا، متجاوزًا عشرين كيلومترًا، مقتربًا من مدينة القرنة الواقعة شمال البصرة 66 كيلومترًا، عند نقطة التقاء نهري دجلة والفرات لتشكيل شط العرب.

عندها، شنت قواتنا هجومًا معاكسًا صاعقًا، أفقدت العدو توازنه، وجردته من زمام المبادرة. ارتبك، وبهت، وتقهقر متراجعًا حتى عاد

إلى خط الحدود الذي أشرنا إليه. كانت لحظة فارقة، تجلت فيها إرادة الصمود، وارتسمت فيها ملامح البطولة على وجوه من قاتلوا حتى الرمق الأخير.

يُعتبر الموقع من الناحية العسكرية أخطر نقطة على طول جبهة القتال، لأنه موقع مفتوح على جبهتين في آنٍ واحد. أحيانًا كنا نتعرض إلى قصف صاروخي من قبل قاذفات العدو كمدفع 106 ملم وغيره، أو من تلك التي تُحمَل على الأكتاف لمعالجة الدروع أو من على العجلات، أو من قبل قاذفات الدبابات والمدرعات... إلخ، لأننا كنا الهدف الأكثر وضوحًا كالشمس في عين العدو، هذا القصف يجري علينا كل يوم دون هوادة. تخيل بأنك تتعرض للموت كل يوم مع ذلك تهجس في داخلك حس من حديد يجعلك تصمد في الموقع في مواجهة غطرسة العدو! ترى أي نوع من البشر يحتمل ذلك الشقاء النفسي والبدني والروحي التي شاخت في الموضع قبل أن تكبر...

أكثر ما كان يزعجني ويقلقني في هذا الموقع هو عملية قضاء الحاجة، حيث شُيِّد موضع الخلاء من صفائح الألمنيوم الملطخة بالطين إلى جانب حمام صغير في العراء في موضع تؤدي إليه متاهة من الطرق بين مجموعة السواتر، يبعد عن المرصد بحدود 150م. الخندق الذي يؤدي إلى الخلاء كان بعمق متر، محفور على شكل دهليز ملتوي أشبه بثعبان ممتد على سطح الأرض، رأسه الخلاء وذيله مرصدنا.

موضع الخلاء من مرصدنا يتخذ زاوية بـ 45 درجة وبمسافة 150 مترًا. فالمكان بحكم الظرف يُعتبر مكشوفًا للعدو، ومعظم إصابات جنودنا تقع في هذه البقعة، ربما الصفائح تعكس ضياء الشمس إلى مراصد العدو، فيفرغ غِلَّه علينا. وأكثر ما كانت تُخيفنا هي قذائف الانفلاق الجوي، تلك التي تنفجر فوق الرؤوس على مسافة 100-150 مترًا من سطح الأرض، فتسقط شظاياها على مساحة واسعة

كـالمطر، وهـي تتبـع كـل مـن كـان شـارد الـذهن ومكشـوف الـرأس والجسـد في العراء، تلك القذائف تهجس بها غيمة تزُخّ النار على ما تحتها.

مـا أفرزتـه تلـك الحـالات الآنفـة عـن حزمـة قلـقٍ متجـذرٍ فـي الـداخل، عشعش كالبكتيريا التي تنمو بصمت وهي تنهش الروح كلما ساورتني الـذكرى وصـاحبني الخـوف. ذلـك القلـق بـات يأكـل مـن أعمـاقي، يضـعفني، يشـتتني، حتـى جـاءني حلـمٌ اسـتثنائي، أضـحى طـوق نجـاة، انتشـلني مـن واقعـي المـريض ومـن قلقـي المجنـون، كمـا يُنتشـل الغريـق مـن لجّـة المعانـاة. ذلـك الحلـم أعـاد إلـيّ تـوازني، وزرع فـي قلبـي شـيئًا مـن البهجـة والسـرور، وأعـاد لـي الثقـة واليقـين بكرامـات الأوليـاء، عظـم الله أجرهم، وثبّت إيماني بالآخرة وبالأقدار وما كُتب على الجبين.

أصـف هـذا الحلـم بأنـه سـحرٌ مـن أضـواء مـا وراء الطبيعـة، مـن عـالم الميتـافيزيقي، أو ممـا يُنسـب إلـى قدريـة علـم الباراسـيكولوجي ومـا شـابه ذلـك. لقـد ربطنـي بالعـالم الآخـر ارتباطًـا قدسـيًا، روحيًـا، قلبيًـا، ونفسـيًا. عـالمٌ لا تدركـه الحـواس، لكنـه يُلامـس أعمـاق التأمـل والغيبيـات واليقـين، عـالمٌ مـن الطبيعـة التـي لا تـدرك بالأحاسـيس العاديـة، لكنهـا تُحـسّ بالقلـب والغيبيات في لحظة صفاء داخلي نادرة.

فـي ظـلّ ذلـك القلـق والخـوف مـن المجهـول، بعـد نجـاتي مـن محاولـة اغتيـال أولـى قـرب مقطـورة المـاء، أعقبتهـا رشـقات كثيفـة مـن سـلاح البـي كـي سـي كانـت تمـرّ فـوق رؤوسـنا ونحـن متكوّمـون علـى سـفح السـاتر هربـا مـن المـوت، حـالات بهـا تشـنّج فكـري واستسـلم للقلـق، ومـا رأتـه عينـي مـن جثـث منتشـرة فـي الأرض الحـرام وآليـات محترقـة، وأخـرى كانـت مدفونـة فـي السـاتر الرملـي، ومـا تركـت تلـك الوقـائع فـي نفسـي مـن عناء، جعلتني أعيش القلق وأرتديه.

يا ترى حلم كان أم رؤيا؟........

وفي خضمّ ذلك التوتر، زارني في المنام سيدي ومولاي، الإمام أبو الفضل العباس بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام. جاءني الإمام العباس بهيبته المعهودة، بهيكل مشرق، مفعم بالبأس والثقة والنضارة. لم يكن بالطويل المفرط ولا بالقصير، بل كانت قامته موزونة، يعلو وجهه نورٌ واضح، بشرة خمرية وعينان سوداوان واسعتان، حاجبان كثّان، بشارب ولحية سوداء، تكسي رأسه غترة بيضاء وثوب ناصع البياض، تعلو كتفيه عباءة "بشت" سوداء مطرّزة بخيوط مذهبة، يطوّق عنقه شال أخضر، بدا وكأنه امتداد لعصابته المباركة.

ما إن وقع نظري عليه حتى عرفته بلا شكّ: إنه الإمام العباس عليه السلام.

اقترب مني وقال لي بنبرة مفعمة بالطمأنينة والوقار:...

- لا تقلق، اطمئن تمامًا، فأنت في حمايتي، لن يصيبك مكروه قط.. لكنني أعتب عليك قلة زياراتك لنا.

استيقظت فزعًا، مبهورًا، مضطربًا، وجلست على فراشي وأنا أردد الحمد والتهليل والتسبيح: بسم الله والحمد لله، لا إله إلا الله، سبحان الله العلي العظيم، سبحان الله العلي العظيم، وبسم الله...

جلست بخشوعٍ، ألهج بالحمد لله، توضأت وصليت ركعتين حمداً وشكراً على ما كان من أمرٍ لم يخطر لي ببال. من بين ثنايا الصدمة التي باغتتني، انتفضت من نومٍ كسير، وشرعت أستعرض تفاصيل المشهد الذي ارتسم في خيالي، مراراً وتكراراً، والرهبة تلامس روحي كما النسيم العاصف. بثُ أنفض عني غبار التعب والوسن، الرؤيا جعلتني أتنفس صمت الحقيقة بخشوعٍ تام.

هجسـتُ بالرعشـةُ تسـري فـي داخلـي، كـأنَّ الأبـواب فتحـت فجـأة علـى عـوالم مـن نـور، وأنـا واقـف علـى العتبـة أرتجـف متبعـا ظلـي الـذي بـات لا يخـاف العتمـة. أصـابت حـالتي شـيء مـن الهسـتيريا المُبجلـة بفـرحٌ يُخالطـه ذهـولٌ لا يُحتمـل، لأنـي شـعرت أنـي فـي رعايـة إلهيـة، لسـت وحيـدا فـي هـذه البقعـة العجفـاء، بـل هنـاك عـين ترعـاني، محصـن برعايـة البـاري، لي مكانة ذات قدسية عند الله.

فـي لحظـةٍ خاطفـة غيـر متوقعـة زارنـي طيـف الإمـام العبـاس كقمـر شـق الـدجى بنـوره السـاطع، مهيبًـا، يسـكنه الوقـار، بهالـةٍ لا تخطئهـا العـين ولا القلـب. بقيـت متسـمّراً، والعـين تترقـرق بـدمعٍ مـا بـين الطهـارة والتـأثر، والمفاجـأة قـد جردتنـي مـن كـل سـؤال كنـت أحملـه فـي داخلـي عـن الحـرب والمسـتقبل، عـن المصـير القـادم وعـن معركـة الطـف... فقـد أنسـاني وهـج الرؤية كل شيء، حتى نفسي، شعرت بأن كل شيء مسير لنا.

كـان اللقـاء كفجـرٍ تسـلل مـن شـقوق العاصـفة النفسـية، ولـم يكـن حلمًـا قـط، بـل رؤيـا، موقفـا متجليًـا يخـتلط بـه الألـم بالطمأنينـة والارتبـاك بالسـكينة، بقيـت هنـاك علـى تخـوم الواقعـة، خاضـعًا للدهشـة، مـأخوذًا بالوقـار، مذهولًا من وهج النور الذي لامس روحي في لحظةٍ فارقة.

كـأنّ الرؤيـا أزاحـت غطـاء القلـق عـن طبقـاتٍ الـروح، أيقظـت فـي ّمشـاعر كانـت راقـدة فـي طيـات الشـعور. تسـاءلت فـي صـمت: هـل هـي بشـارة؟ أم نـداء مـن الغيـب؟ أم انعكـاسٌ لألـمٍ يسـتغيث بـالعزاء فـي الـداخل؟ لكنهـا لحظـةٌ انسـلاخ لا تُنسـى، تجلـتْ وسـط الأزمـة، هجسـت بنفسـي انتزعـت عنـي أسـمال الضـعف، وأنـي لـي مكانـة خاصـة عنـد البـاري، محصّـن بلطفه ورعايته.

لـم يكـن حلمًـا قـط، بـل رؤيـا بكـل عمقهـا. لقـاء تجـاوز الإدراك، خـالط فيـه الألـم بالسـكينة، والدهشـة بالوقـار. بقيـتُ هنـاك، علـى تخـوم التجلـي، أتـنفس الحقيقـة التـي كنـت غـافلا عنهـا، مـأخوذًا بـالنور، أردد فـي داخلـي:

شكرا يا الله، لقد لامسني الغيب، وأشعر أنني في حضرة العناية الإلهية.

كنت قد سألت رجلا فاضلا عن الرؤيا فأجاب بما اسر روحي، كأنه سكب دلو من الماء البارد على قلبي حيث قال:....

- كأن الوجود كله قد انحنى في تلك اللحظة ليبوح لك بسرٍ عظيم، وكأن الإمام العباس عليه السلام لم يزر سوى شخصك وأنت من بين كل الخلق استُدعيت لتستشعر الطمأنينة حين عمّ الخوف. وما كان هذا اللقاء استثناءً عبثيًا، بل رسالة بأن لك مكانًا بين من ترفعهم السماء، وتضع في قلوبهم نورًا لا يُطفأ. ربما أربكتك الهيبة، وربما فاض المشهد بعظمة لا تستوعبها الكلمات، لكن ما حدث هو إشعار بأن ما هو أعظم لم يأتِ بعد، وأن الأسئلة التي احتبست في صدرك، ستُجاب في وقتها- بصوتٍ أو بإشارةٍ أو بحدثٍ يحمل الإجابة دون أن تنطق بها. فلتصقل هذا اللقاء بأن تراه نعمة، وأن تحفظه في قلبك كما تحفظ الجوهرة، بالشكر والامتنان. لأن مجرد حضوره إليك، هو جواب أعظم من أي سؤال.

....

ما حز في نفسي لم أؤدِّ واجب تشريفه كما ينبغي. كنت أتوق أن أبقى منصتًا له حتى النهاية، لكن تلك اللحظة كانت غير متوقعة فلم تمنحنِ فرصة التشريف، لقد ارتبكت أمام شخصه، اللحظة فاقت المشهد قيمةً وإجلالًا، أربكتني. كان هو- الإمام العباس بشخصه، لا يُدرك حضور اللحظة إلا من عاشها، ولا يكرم إلا من خُصّ بكرامة.

ولم يكن ليأتيني لولا أمرٌ من الله عز وجل أوعز له بأن يطمئن قلبي. وإلا، لما لم يُخبر سائر الجنود بالخبر ذاته؟ لماذا كانت هذه الحالة

حالـة استـثناء؟ هـذه الأسـئلة تنهشـني حتـى اللحظـة، وتتـرك فـي نفسـي أثـرًا لا يُمحى.

أشـعر أحيانًـا أنـي أملـك شـيئًا مـن الكرامـات، انـتقم مِـنْ مَـنْ يتعـدّى علـى حقـوقي بكرامـاتي ولـيس بيـدي، فلـن يهنـأ بمـن يسـرقني أو يتحايـل علـيَّ، لأني في جوهري لا أغبن حق الآخرين.

ووسـط ارتبـاكي، لـم أسـتطع أن أسـتمتع بلقائـه كمـا ينبغـي، أن أرافقـه كمـا تمنّيـت، أو أن أسـأله عـن واقعـة الطـف، عـن الجريمـة التـي أنهـت حيـاة الطهـر، عـن قاتـل الحسـين عليـه السـلام، عـن عمـر بـن سـعد، وشـمر بـن ذي الجوشـن، عـن زيـد بـن ورقـاء، وحكـيم بـن الطفيـل السنبسـي، عـن يزيـد بـن معاويـة ودوره فـي تلـك المعركـة، وعـن الغمـوض الـذي شـاب غايـاتهم، وعـن نهايـة تلـك الحـرب الملعونـة، عـن مسـتقبل العـراق... عـن مستقبلي أنا.

فـي لحظـة غفـوة غارقـة بالدهشـة، تسـربت الأسـئلة إلـى صـدري دون أن تجـد سـبيلًا للخـروج؛ مـا أن تفاجـأت حتـى ارتعبـت، ثـم انصـرفت مفزوعـا، تاركًـا المشـهد يـنهش مشـاعري ويشـعل فتيـل الحيـرة فـي ذهنـي. ارتجفـت اطرافـي واحترقـت ورقـة تسـاؤلاتي بنـار الجـزع، الرهبـة شـتّتت طيور الظن في فضاء اللقاء، فلم استطع أن أمسك بإحداهن.

كـان اللقـاء أشـبه بفرقعـة مفاجئـة فـي سـكون الليـل، عقـرت فكـري حـين همـس إلـيَّ بـأنني محمـي مـن قبلـه بـإذن الله. وكـأن الرسـالة جـاءت لتكتفـي بـالخبر والحضـور فقـط، دون أن تُمهّـد لمـا بعـدها. لحظتهـا، لـم أصـدق الحـدث، لقـد غـادرت ذاكـرة الأسـرار إلـى مرافـئ العجـز، انتفضـت مـن نـومي مفزوعـا وأنـا أتقلـب بـين يـدي القـدر كـالمجنون الـذي لا يعـرف إن كان غارقا في الفرح أم مغشيا من الرعب.

كم كنت مسرورًا، مسكونًا بنشوة اليقين، حين شعرت أنني أعيش في ذهن الإمام العباس، أو بالأحرى في رعاية الله. إحساس بالحماية عصيٌّ على الكسر، يكلل وجودي. ذلك الحلم بواقعه كان أشبه بمعجزة نادرة من نوادر القدر، منحني حظوة لا ينالها إلا القليل، فبُهت قلبي وندم على ضياع الفرصة شوقًا لتكرارها، لكن فرص الغيبيات لا تتكرر.

لكن بصحوتي وجلوسي على فراشي، بدا لي أني أسقطت مفاتيح السعادة وطالع المستقبل من يدي في هوة الارتباك، وكأنها تلاشت فرصة معرفة المستقبل كما يتلاشى السراب في العتمة. تمنيت لو سألته عن مكانتي عنده، وعند الله؛ وإن كنت مطمئنًا من خلال التجارب السابقة واللاحقة التي مررت بها والتي سأتطرق لها دعما وتأكيدا لكرامتي ورؤياي. كنت أبغي أعرف حجم نصيبي من الدنيا والآخرة، وسر حمايتي دون غيري.

لكن.....

لكن تبددت الفرصة كالضباب وما بقي منها سوى طيف الامام يدور في مخيلتي، يرافقني باستمرار وتلك الكلمات الرنانة بقيت ترسم هالة العشق بيننا وهي ترن في صوان أذنيّ لتترك صداها في خاطري:.....

- **لا تخف أنت بحمايتي......**
  لا تخف، تطمأن، لن يصيبك مكروه...
  لكني اعتب عليك قلة زياراتك لنا.........

شكرا لك يا سيدي ويا مولاي، هذه الصلة بيني وبينك ولدت مع ولادتي، وتجذرت بزيارتك لي، ولن أنسى فضلك يا أبا الفضل، ازلت عني هم الدنيا والآخرة، يا من وصفتَ بالكرامة والشهامة والنبل الذي قهر الجبابرة.

3- أسم الرسول الكريم محمد (ص)

فــي هــذا المجــال، أود أن أُدرج بعــض الحــالات التــي أعتبرهــا امتــدادًا للرؤيــا؛ مكمــلات تشــبه سلســلةً مــن خــرز الــروح، كــل حبّــة فيهــا تمثّــل لحظــة مــا نــادرة، حــدثًا مــا غريــب، فكــرة أو ومضــة نبوئيــة، فــتهجس بالسلســلة أشــبه بمجموعــة مــن الأحجــار الكريمــة كــل لــه ميــزة وســحر. والصــورة لا تكتمــل إلا حــين تُــرص كمجموعــة متصــلة فــي بعضــها بسلسـلة فـي العنـق، ككـلٍ يُسـتقرأ ليكشـف عـن مغـزى أعمـق، أشـبه بـنقشٍ مقـدّس، روحــي، فــي جــدار حضــاري قــديم. فالعقــدة كلهــا تــدور حــولي، تلمع كحقائق غير قابلة للشك.

بعــض هــذه الحلقــات وقعــت قبــل الرؤيــا، وبعضــها بعــدها، لكنهــا جميعًــا تنتمــي إلــى ذات الثيمــة، وتنــبض بــذات المــذاق الروحــي. وكأنهــا رســائل مشــفّرة تتــردد داخــل نســيج الــوعي، تجعــل القــارئ يجــزم بأنهــا ليســت محــض مصــادفة، بــل نــداءً لاكتشــاف الأبعــاد الخفيــة المتواريــة خلــف ستار الواقع.

حلقــات متتاليــة تــدور حــول محــور ذاتــي، وأنــا أظــن كــل حلقــة منهــا هــي بحـد ذاتهـا معجـزة، لاسـتحالة تصـديقها بـالمنطق العـادي. التـي سـأتحدث عنهــا، لا يمكــن تكرارهــا فــي ذات الســياق والــزمن والمعنــى. أستشــعر أنهـا تخصـني أنـا فقـط، هـي مـرآة روحـي، لا يمكـن أن تحـدث لشـخص آخر دون أن يمتلك الكرامات، ثم الأشخاص لا يتطابقون أبدًا.

الرؤيــا ليســت ومضــةً عــابرة، بــل محــورٌ يــدور حولــه مقــدار الــوعي؛ بــؤرةٌ روحيــة تُضــيء تفاصــيل الحيــاة وتمــنح كــل حــدث معنــىً يتجــاوز الظــاهر. هــي مركــز ذاتــي، تشــعّ منــه إشــارات فارقــة، علامــات تُرشــد نحــو فهــمٍ أعمــق للــذات والعــالم الغيبــي، بــل هنــاك ســرّ كــامن وراء وجــود كــل تفصيل.

لقد عشت أحداثًا غريبة، تشكّلت على هيئة حلقات روحية، بعضها كنت فيه فاعلًا مباشرًا، والبعض الآخر كنت فيه مجرد مراقب، أو شريك صامت، أو شاهد ظلّ يتأمّل دون تدخل. وفي بعض المشاهد ركبت دور الكومبارس؛ أديت دورًا هامشيًا لكنه جزء من الصورة الكبرى التي لا تكتمل إلا بي.

لامستُ قاع تلك التجارب في مراحل شتّى من حياتي، ورأيتها بعينٍ داخلية تنقّب في المعنى لا في المظهر. وسأرتبها وفق تسلسل زمني لتمنح الرؤيا هالتها المستحقة؛ هالة القدر، والأهمية، والتفرّد الذي اختصّني بها، والذي لاحقًا انبثقت منه علاقة غير مألوفة مع الزمن ومع الذات.

فصول التفاصيل قادمة، وسأرويها كما استوطنتني، بكل ما فيها من رموزٍ وإشارات. لا أدري كيف تواطأت تلك الأحداث مع ذاتي، ولا كيف تسللت إلى أعماقي دون استئذان، لترفعني من واقع التشتت إلى سماء الأمان والبهاء. كانت كأنها نُسجت من نسيج لا ينتمي لهذا العالم، خيوطها تربط الماضي بالحاضر، وتنسج من المستقبل رؤىً لا تُفسَّر. كأنَّ هناك من ينسجها ويضبطها لتنطبق عليَّ.

لم تكن مجرد وقائع، بل كانت إشارات تتجاوز المنطق، تتحدث بلغة لا تُفهم بالعقل، بل تُحسّ بالقلب. كل لحظة فيها كانت كأنها ومضة من عالم آخر، عالم لا يخضع للقياس، ولا يُحدّ بأطر الإدراك المعتاد. صرتُ أقف أمامها مقيدا، لا أملك تفسيرًا لما حلّ بي. هل هي من الباراسيكولوجي؟ أم أنها لحظة إعجازية تسللت من الغيب؟ لا أعلم، ولا أظن أن العلم يكفي لفهمها. فقط أعلم أنها خصتني وغيّرتني، وأعادت تشكيل ملامح روحي.

أنا الآن أقف على عتبة جديدة من الوعي، لا أطلب تفسيرًا، بل أحتضن الغموض، وأدع نفسي تنصت لما وراء الكلمات.

لنأخـذ الحالــة الأولــى التــي قـد تكـون الأقـدم بينهــا، كــان الطقــس صــيفًا سـليطا، لا يشـبه سـائر مواسـم الطفولـة التـي إعتادهـا الفتيـان فـي حيّنـا. شــهر آب كــان يلهــب الأرض، والســماء تراقــب بصــمت، كأنهــا تخبــئ شـيئًا خـارج المنطـق. كنـت فـي الثالثـة عشـرة، فتـىً يانعًـا كزهـرة فـي أول تفتحهـا، تتلـذذ بروعـة الحيـاة وتفـتن بجمالهـا، لاأزال أقطـن علـى أعتـاب الحيـاة، أنتظـر تفـتح لـي أبوابهـا، أحمـل فـي داخلـي وهجًـا مختلفًـا، ذكـاءً خارقًـا، وفطنـة تسبق العمـر، كـأني خُلقت لأكـون عينًـا تـرى مـا لا يُـرى، وذهنًا يلتقط ما يغيب عن الآخرين.

فــي مســاء يــوم مــن شــهر آب، والحــر يجلــد الأرض، وقفــت أمــام بــاب الــدار، أراقــب الشــارع الــذي حفظــت تفاصــيله كمــا أحفــظ ترتيــب قطــع الشــطرنج وإلــى جــانبي أخــي الاكبــر "بحــري" وأبــن جارنــا "فاضــل". فجـأة، باغتتنـا سـحابة بيضـاء تسـوقها عاصـفة شـديدة مـن الريـاح، غيمـة صـغيرة بحجـم ملعـب كـرة القـدم، لكنهـا عظيمـة فـي أثرهـا، كأنهـا أُرسـلت مـن عـالم الغيـب لتعلمنـا بشـيء مـن الغيـب. كانـت تـدلقها عصـفة ريـح حلـت مـع حلولهـا، جعلتهـا تجـري بسـرعة لا تُفسَّـر سـوى أنهـا تجـري لمهمـة جليلـة، كأنهـا تُسـحب مـن بـاطن السـماء بيـدٍ خفيـة، وفـي طيهـا تحمـل برقًـا ورعـدًا ومطـرًا وبـردًا، فرشـت الأرض ببسـاط نـاعم مـن البـرد والمطـر لطفـت الطقـس الملتهـب، حلـت كمظلـة رحمـة فـوق رؤوسنا حجبت عنا لهب الشمس.

لـم تكـن مجـرد سـحابة، كانـت كأنهـا كـائنٌ حـي، لـه إرادة، لـه مهمـة، لـه توقيـت وغايـة... **لكـن الأعجـب لـم يكـن فـي زخاتهـا ولا فـي سـرعتها فقـط، بـل فـي تلـك اللحظـة التـي شـق بـرقٌ عظـيم منهـا صـدر السـماء، لـيخط ذلـك البريـق أمـام عينـيّ اسـم النبـي محمد ﷺ، بخــط الــديواني مــن فــج الســماء لــلأرض كمـا فـي الصـورة، لـم يكـن برقـا عاديـا، بـل رسـالة**

توحي بالغيبيات، صورة لا تُمحى من الذاكرة ولا من القلب أبدا.

تلك اللحظة أضحت نقطة تحول في إيماني على الرغم من أني أآمن بالله الواحد الأحد. ولكن لم تكن الحالة مجرد ظاهرة جوية، بل كانت لحظة إيمانية نادرة، علامة فارقة، إشراقة من عالم الغيب، جعلتني أوقن بالله دون أن أُلقّن، أصدق بالغيب دون أن أتعلَّم، في وقت كان الإلحاد يتسلل إلى عقول البعض السذج، ويُشكك في الوحي والجنة والنار.

رغم غياب الرعاية، ورغم ضجيج الأفكار المتصارعة، كنت أرى، وأؤمن، لأني كنت مُختارًا لأشهد ما لا يُشهد، وأبصر ما لا يُبصر.

كان صيفًا لا يشبه سائر مواسم الطفولة التي اعتدتها في حيّنا. آب يلهب الأرض، والسماء تراقب بصمت، كأنها تخبئ شيئًا للمستقبل. هجست بالحياة تفتح لي أبوابها وأنا أركض في مساراتها بتلك الفطنة والذكاءٍ الحاد، ونظرةٍ تلتقط ما لا يُلتقط.

تسمرت في مكاني، والبرد يرش وجهي، والريح تعبث بثيابي، لكنني لم أشعر بشيء سوى بذلك النور الذي انسكب في داخلي وأسر قلبي. حينها نبهت أخي وابن الجار، أشرت لهم إلى السماء:.....

- انظروا اسم الرسول الكريم...

فاضل قال لي: .....

- يا نيالك، مبارك عليك، هذه دلالة خير يصيبك..

كلماته لم تكن مجرد تعليق، بل كانت ختمًا على لحظة زرعت في قلبي يقين بأن الله لن يخذلني في الحياة، لحظة ستظل تسكنني ما حييت كوهج تذكرني بذاتها. منذ تلك اللحظة، تغيرت أشياء في نفسي وفي

فكري. لم أعد أرى العالم كما كنت، صار للسماء معنى، وللغيوم رسالة، وللبرق نطقٌ لا يُسمع إلا بالقلب.

رغم أنني كنت أقضي وقتي في اللعب، وأعيش في مجتمع يسير بالبركة لا بالتخطيط، وبرعاية الوالدين الغائبة نتيجة الفقر، إلا أنّ تلك اللحظة كانت كأنها تربية من نوع آخر، تربية من السماء، من عالم الغيب، من الله عز وجل.

بدأت تتوسع مداركي، أصدق الغيبيات. كانت الرؤيا في اليقظة كبذرة نمت في أرضٍ خصبة من الذكاء والحدس، وبدأت تُثمر في داخلي أسئلة شتى، وبدأت تعطف على هوسي بشوقً فيه لجاجة بحثًا عن المعاني المتداخلة.

بعد تلك الرؤيا، لم أعد كما كنت. شيء ما في داخلي استيقظ، كأنني خرجت من شرنقة الطفولة إلى عالمٍ أوسع، عالمٍ فيه للسماء صوت، وللغيوم نطق، وللبرق رسالة. لم أكن أملك أدوات الفهم الديني، ولا كنت ممن يترددون على المساجد أو يقرأون الكتب إلا ما ندر، لكنني كنت أؤمن ببساطة الدين، كأن الإيمان وُلد معي منذ الطفولة.

في المدرسة، كنت أرى زميلي محمود، الذي كان يتحدث عن الإلحاد والماركسية، يردد أفكارًا غريبة عن أن محمدًا كتب القرآن بيده، وأن لا وحي نزل، ولا جنة ولا نار حضرت. كنت أستمع إليه لا لأني أصدقه، بل لأني كنت أبحث عن مفاتيح لفهم ما يجري حولي. كانت تلك الأفكار منتشرة، خاصة بعد وصول حزب البعث إلى سدة الحكم، والصراع المحتدم بينه وبين الحزب الشيوعي الذي كان يغذي تلك النزعة الإلحادية بين الشباب. عندها قلت له في يقين تام:.....

- أخي لننسى الاسلام والنبي وننظر إلى القرآن ككتاب تشريع وقوانين ينظم الحياة، هل وجدت فيه أخطاء وعيوبا كي لا

تتبعه؟ هل وجدت في القرآن أية شائبة أو شيء مخل؟ في الفكر والتوجيه واللغة أو في تركيب الجمل؟ أو إخلال بالمعنى؟ ألا يشدك ذلك إلى أنه كتاب منزه، حكيم؟ كيف لرجل أمي تمكن من صنع كتاب لم يستطع عباقرة العلم واللغة عبرَ 1400 سنة من الطعن فيه؟ كتاب ألفت عليه آلاف الكتب والمراجع، بنيت عليه عشرات كتب التفسير، أقيمت لأجله آلاف المعارك وفتحت به دول، اذهل الدنيا لتمتد الدولة الاسلامية كأكبر امبراطورية على وجه الارض عبر التاريخ حتى وصل حدودها من الصين شرقا لجنوب فرنسا غربا... إلا يهزك ذلك؟... لو كان هذا الكتاب عاديا ومن صنع البشر ما فعل كل تلك الضجة عبر تلك السنين الطويلة من النجاح والتطور، ولو كان هذا الكتاب من صنع البشر ما أنتبه عليه الا بعض البشر....

هنا بهت، لم يستطع الإجابة،

لكنني كنت مختلفًا. لم أكن أجادل، ولم أكن أهاجم، كنت فقط أبتسم، وأحتفظ بصورة البرق في قلبي، كنت أعلم أن ما رأيته لا يمكن أن يكون وهمًا، ولا خيالًا، ولا مصادفة. كان يقينًا ورسالة للبشرية، وكان يكفيني شهادة على وجود الله.

تلك اللحظة لم تكن لحظة عابرة أبدا، بل كانت رؤيا صادقة في عز النهار، كانت يقظة داخل حلم، كانت مشهد إعلانٍ آتٍ من عالم الغيب يخبرني بأنني لست كغيري، أنني أُبصر ما لا يُبصر، وأُدرك ما لا يُدرك. كنت متميزا بالحس والفطنة والذكاء المفرط، ما جعلني أكون بارعا في المواد العلمية بشكل عام، بل كنت أذكى طالب في المدرسة بمادة الرياضيات والفيزياء. كنت نبيها جدا، بدأت ألاحظ أنني أمتلك قدرة على قراءة أفكار الناس، على فهم دوافعهم، على التقاط إشاراتهم

الخفية. كنت أرى في نظراتهم ما لا يُقال، وأفهم من حركاتهم ما لا يُفصح عنه. كنت كأنني أعيش في طبقة أخرى من الإدراك بعيدا عن واقع أقراني، طبقة لا يصل إليها إلا من فيه كرامة ليرى ما رأيت.

مرت أيامٌ وأسابيع، والرؤى تزداد عمقًا، والإشارات تتكاثر كأنها تزف اقتراب المهمة. لكن الإيمان لا يكتمل بلا ابتلاء، ولا يُصقل دون نارٍ تختبر المعدن.

في أحد أيام الربيع، جاءني أحد زملاء الطفولة، يُدعى طه، كان فطنًا، لكنه ساخرا بطبيعته، ينكر الغيب ولا يعترف بالرؤى. جلسنا قرب المسجد القديم، وقال لي:...

- كل ما تقوله عن السحابة والبرق والحروف النورانية مجرد خيال... نحن في عصر العلم، والسماء لا تكتب أسماء.

نظرت إليه لا لأجادله، بل لأقرأ في عينيه ما يُنكر. لم تكن المشكلة في عقله، بل في خوفه من أن يؤمن. قلت له بهدوء:...

- ليس الخيال ما يُربكك، بل أن النور قد مرّ ولم تشهده... ربما لأنك لم تفتح الباب الثالث بعد.

ضحك، وهزّ رأسه، ثم قال لي:....

- إذا كنت ترى الغيب، فقل لي ماذا سأفعل غدًا.

أجبته بابتسامة:....

- ستقف أمام طريقين، وتختار الأصعب، لأن روحك لا توافق عقلك.

بعد مدة عاد إليّ، ونظراته مختلفة. قال لي:....

- لا أعلم كيف، لكني كنت على مفترق طريقين فعلاً... واخترت واحدًا لم أفكر فيه من قبل.

كانت تلك اللحظة أول اعتراف منه بحيرة، بتشكك صادق، بتمهيد لفتح بابٍ جديد في قلبه. هكذا بدأت رحلة الاختبار. لم تكن مواجهة مع زميلٍ فقط، بل كانت رسالة أن الرؤيا لا تبقى حبيسة القلب، بل تُختبر، تُروى، تُهدى للقلوب التي تستحق.

مرت الأعوام، وسكنت الرؤيا في أعماقي كما يسكن النور في جوف اللؤلؤة. لم أعد ذلك الفتى الذي يركض في الحي باحثًا عن اللهو، بل صرت كمن يحمل رسالة لا يعرف حروفها بعد، لكن يشعر بثقلها في قلبه كلما نظر إلى السماء. كنت أعيش بين الناس، لكنني كنت كمن يسير في حقلٍ من الرموز. أصوات الناس تحمل همسات لا يسمعها الآخرون، ومواقف الحياة تنطق بعبرٍ لا تُقال إلا لمن عرف البرق حين كتب النور.

ذات يوم، دخلت مجلسًا عائليًا، وكان النقاش حاميًا بين الدين والعقل، بين الإيمان والشك. نظرت إلى المتحدثين، ورأيت في أعينهم تشققًا، كأنهم يخوضون حربًا داخل أنفسهم، فلا يسمعون إلا صدى الخوف.

حين جاء دوري للكلام، لم ألقِ موعظة، ولم أرفع صوتي، فقط قلت:.....

- هناك لحظات لا يُقنع بها العقل، لكنها تملأ القلب يقينًا... كلحظة التي خط البرق فيها اسم النبي ﷺ، لم أحتج حينها إلى تفسيرات الفلاسفة، ولا حجج المنطقيين، كان الإيمان هو البرهان.

ساد الصمت، ثم رأيت بعض الوجوه تبتسم كأنها تذوقت شيئًا من الحقيقة. في تلك اللحظة، أدركت أنني لست نبيًا، ولا صاحب وحي،

لكنني كنت شاهداً على أثره في زمنٍ اختلطت فيه الرؤى بالصراخ. الإيمان الذي كان يسكنني بدأ يتحرك، ينبت كلماتٍ، يضيء دروبًا، يلهم حتى من يُكابر. كنت أعلم أن الطريق طويل، وأن الرؤيا ليست نهاية، بل بداية... بداية روحٍ اختيرت لتبصر حين يعمى الناس، وتفهم حين يصمت الضجيج.

6- أسئلة الرياضيات

بعد مرور سنتين أو ثلاث على الحالة البرق، كنت حينها في الصف التاسع من المرحلة التأسيسية. ورغم أنني كنت الطالب الأفضل بلا منازع في مادة الرياضيات، تسلّل إليّ قلق شديد قبيل اختبار البكالوريا. ذلك القلق لم يكن له مبرر منطقي، لكن حرصي الزائد وخوفي من الوقوع في الخطأ بسبب طبعي العجول جعله يتضخم. ورغم قدرتي على حل مسائل كتاب الهندسة والجبر دون عناء، إلا أنّ العجلة كانت تسبق إرادتي فتجرها خلفها، كنت أسرع من اللازم، لا أستطيع البقاء في قاعة الاختبار لأكثر من نصف الوقت المخصص.

في ليلة الاختبار، راودني حلم غريب؛ حين دخلت قاعة الامتحان، قرأت ورقة الأسئلة بثقة وحفظتها عن ظهر قلب كما لو كانت محفورة في ذاكرتي. لكن عندما استيقظت باكرًا استعدادًا للاختبار، لم أتذكر منها سوى السؤالين الأول والثاني، بينما غابت عني بقية الأسئلة. حاولت جاهدًا أن أسترجعها دون جدوى، فكتبت السؤالين في دفتري مع الحل بتأنٍ، راجعتهما بدقة حتى حفظتهما تمامًا، حرصًا مني على ألا أقع في أي خطأ أثناء الإجابة في الامتحان.

 يا لها من لحظة استثنائية! إليك إعادة صياغة للنص بأسلوب أدبي متماسك يعكس مشاعرك ويبرز روعة الحدث:

في صباح اختبار الرياضيات، وقبيل الدخول إلى قاعة الامتحان، التقيت بصديقيّ المقربين، عباس منشد ومحمد كلمراد. رويت لهما تفاصيل حلمي الغريب الذي رأيت فيه الأسئلة، وأخبرتهما بالسؤالين اللذين حفظتهما عن ظهر قلب. لم أكتفِ بذلك، بل نقلت ما جرى لعدد من الزملاء عند بوابة المدرسة، محاولًا أن أنبههم لما شعرت أنه أمر غير اعتيادي. لكن ردّهم كان مخيبًا للآمال؛ لم يأخذ أحد قصتي

بجدية، بل قوبلت بالسخرية والاستهزاء. ضحك البعض، واعتبرها آخرون ضربًا من الخيال أو الخوف المُفرط قبل الامتحان.

لكن ما إن بدأ الاختبار وتسلّمت ورقة الأسئلة، حتى انقلبت المفاجأة إلى لحظة من الذهول والدهشة: الأسئلة كانت هي ذاتها التي رأيتها في الحلم، تطابقًا تامًا من حيث الصياغة والمضمون. شعرت للحظة وكأن الحلم كان نافذة لما هو قادم، وكأن وعيي سبق الزمن.

تملّكني شعورٌ عجيب؛ خليطٌ من الفخر والفرح والخوف والرهبة في آنٍ واحد. غمرتني الغبطة، وراودني إحساسٌ بأن ثمة شيءٌ داخلي يميزني عن الجميع. بدأت أرى نفسي من منظور مختلف، وكأن التوافق بين الحلم والواقع كشف لي عن قدرة استثنائية، ربما مرتبطة بشغفي وتأملي وأحلام اليقظة التي تعيش في داخلي.

لقد كانت لحظة إعجاز على مستوى الإدراك، رفعتني في عينيّ، وجعلت نظرات زملائي تتبدل من شك إلى انبهار.

أحلام اليقظة هي ارتحالٌ ذهني نحو أمنياتٍ لا يُتاح لها التحقق على أرض الواقع، لكنها تمنح صاحبها إشباعًا خياليًا مؤقتًا. حين تضيق الحياة بالفرص، يلوذ الإنسان بخياله إليها ليستنشق منها ما يعجز عنه في اليقظة. الشباب، لا سيّما من يغلب عليهم التأمل والكسل، يمارسونها بوفرة، لكنّها في الحقيقة لا تقتصر عليهم، فكل البشر يتسللون إليها بين الحين والآخر.

غير أن الإفراط في الاستغراق فيها قد يُفضي إلى التشتت، البطء في إنجاز المهام، وتضاؤل القدرة على التركيز. خذ مثلًا الطالب الذي يحضر المحاضرات بانتظام، ينصت ويجتهد، لكنه يجد نفسه يسرح بفكره إلى فضاءات أخرى، حتى يفيق وقد فاته الكثير. أو ذاك الذي

يجلس ليذاكر، فيغوص في بضعة سطور ثم يبحر بخياله بعيدًا عن الكتاب والواقع، فلا يستيقظ إلا وقد تبخر الوقت ولم يحصد منه شيئًا.

إن أحلام اليقظة ليست مجرد ترفٍ ذهني، بل استجابة بديلة حين يعجز الواقع عن إشباع الدوافع. الفقير يحلم بالثراء، والفاشل يتخيل لحظة المجد، وحتى أكثر هذه الأحلام هشاشة قد تتغرس في النفس لتدفعها نحو التطور. فهي مصدر للتخفف من القلق، وأحيانًا شرارة للتحفيز الذاتي.

أنا شخصيًا رأيت أن كثيرًا من أحلامي لم تكن مجرد خيال؛ لقد تصادف أنها تطابقت مع الواقع، مما منحني شعورًا بالتميّز والخصوصية. ومع عشقي للرياضيات، راودني حلمٌ صغير أن أصبح مدرّسًا لها، رغم بساطة البيئة وهشاشة الإمكانيات. ولكن تحقق ذلك الحلم، أصبحت أدرّس ما كنت أتخيل أنني سأشرحه يومًا لزملائي.

يلجأ معظم الناس إلى أحلام اليقظة أحيانًا، ولكن الأسوياء سرعان ما يعودون إلى الواقع، أما الاستغراق الشديد فيها إلى درجة استنفاد جزء كبير من الطاقة النفسية، فذلك يؤدى الإسراف فيها بشكل عصابي مرَضي، قد ينتهي بالفرد إلى العجز عن التمييز بين الواقع والخيال. و طبعا عن طريق أحلام اليقظة والإصرار على تحقيقها قد يتمكن الشخص من الوصول لما يخطط ويريد، وقد يصل إلى الاكتفاء بالتخيل فقط.

يُعتقد ان بعض هذه الأحلام قد تتحول إلى واقع تطابقا مع قانون الجذب، وقد تتحول إلى حقيقة، ولعل كثير من العلماء العباقرة بدأت عبقريتهم بنوع من أحلام اليقظة التي صارت واقعًا لهم، فمعظم المخترعين الكبار كانوا يعيشون أحلامً يقظة موسّعة، ولكنها كانت مفيدة وهادفة. وأنا في هذا المجال بعد أن وجدت نفسي متفوقا على زملائي في مادة الرياضيات، تأملت أن أكون مدرسا لمادة الرياضيات

علـى ضـعف وبسـاطة احلامنـا وهشاشـة محيطنـا، وقـد تحقـق لـي ذلـك. ولو كنت أعيش في بيئة متطورة لتغير حلمي وكبر خيالي.

لكن الـذي كنـت عليـه لا علاقـة لـه بـأحلام اليقظـة، أنهـا رؤيـا صـادقة.. لـذا فـي قاعـة الاختبـار كنـت أعـيش حالـة حبـور وتبـاهي أمـام الـزملاء، فأجبـت علـى الاسـئلة وأنـا واثـق وثوقـا أعمـى مـن إجابـاتي دون شـك والطـلاب يحـاولن أن يسـتعينوا بـي دون جـدوى بسـبب أنـي كنـت أجلـس في أول كرسي من قاعة الاختبار..

بعـد أن شـعرت بـأني أجبـت علـى جميـع الاسـئلة بتفـانٍ. بعـد أن أتممـت إجابـاتي، لـم أنتظـر لحظـة واحـدة فـي القاعـة، انطلقـت بسـرعة البـرق لأسـلم إجابـاتي إلـى الاسـتاذ المراقـب كـأول طالـب يخـرج مـن قاعـة الاختبـار، وذلـك قبـل أن نتجـاوز نصـف الوقـت، حسـبت نفسـي قـد أنجـزت المهمة بوقت قياسي جدا، خرجت فرحا مسرورا كأول الممتحنين...

كمـا قلـت سـابقًا، مـن عيـوبي العجلـة فـي اتخـاذ القـرار. العجلـة جعلتنـي أُخطـئ فـي فقـرة صـغيرة خـلال الاختبـار، حيـث نسـيت أن أشـير بعلامـة الصـح والخطـأ فـي سـؤال فرعـي كانـت عليـه سـبع درجـات. وبسـبب ذلـك، فقـدت تلـك الـدرجات، فحصـلت علـى نتيجـة 93 مـن 100. رغـم الخطـأ، كانت درجتي الأعلى على مستوى المدرسة في مادة الرياضيات.

فـي سـنوات المراهقـة، كنـت إذا قـرأت روايـة أو بيـت شـعر، أعـيش حلـم أن أكـون يومًـا شـاعرًا، كاتبًـا، روائيًـا. كنـت أنظـر بـإجلال إلـى الروايـات ذات الثلاثمئـة صـفحة، وأشـعر بـأن ترتيـب الكلمـات بتلـك العبقريـة معجـزة تسـتحق التبجيـل. ولكـن بعـد أن فهمـت بنيـة الروايـة وطريقتهـا، شـعرت بسـعادة عظيمـة، فقـد أصـبح الحلـم أكثـر قربًـا.... وأحيانًـا، كانـت زوجتي تقول لي مازحة بدافع الغيرة:

- لمَ لا تكون كفلان الكاتب؟

لكنني كنت مؤمنًا بقدرتي، مدفوعًا بالثقة والحافز، رافضًا الأساليب الدارجة، ساعيًا للتميز دائمًا. ذلك دفعني إلى خوض التحدي لإثبات قدرتي الأدبية أمام ذاتي أولًا.

من الطبيعي أن نحلم بما نرغب، وأن نغرق في أحلام اليقظة. لكن التفكير الإيجابي لا يعني الاكتفاء بتصور مستقبل مشرق، بل بوضع خطط عملية لتحقيقه. تظهر الأبحاث النفسية أن المقارنة بين الرؤية الحالمة والواقع - وتحديد العقبات والسبل لتخطيها - هي ما يسمّيه العلماء بـ "التباين الذهني". ومع ذلك، ما مررت به لا أضعه تحت خانة أحلام اليقظة. إنها رؤى خارجة عن إرادة الفرد، تُصور لي واقعي كأنه حقيقة من عالم الغياهب البعيد. ليست تلك الرؤى من صنع إرادتي، بل هي التي تقمصت شخصي.

على كل، بعد خروجي من قاعة الاختبار، صرت أضحك على من استهزأ بي حين كنا نتناقش في حلول الأسئلة. كثير منهم لم ينجح، فقلت ممازحًا:

- يا أيها الأصدقاء، اسمعوا ووعوا، فمن تبعني نجح، ومن أبى شطح. أنا المُنزّه، إن صدقتموني ربحتم، وإن كذبتموني خسرتم، ولا تضروا سوى أنفسكم... فصداقتكم بلا ههههههه!

فرد أحدهم ضاحكًا:......

- بالله عليك، يا طيب، احلم لنا غدًا باختبار اللغة الإنجليزية. سأنتظرك!

لا أعرف كيف أربط تلك الأحداث برؤيا جبهة القتال التي رأيتها لاحقًا، لكن كان هناك دائمًا شيء غريب بداخلي، يميزني عن

زملائـي. ذكـاءٌ لـم يـأتِ مـن فـراغ، مـع أنـي لـم المـس شـيئا يميزنـي عـن زملائـي فـي حينـه، ولكنـي بـت اتحسـس ذلـك مـع انتبـاهي الـذي بـات يكبـر مع كبري ويتضح مع اهتمامي.

نعود إلى واقع الحلم...

جلسـتُ فـي زاويـة فرشـتي كمـا يجلـس مـن طُـرِق رأسـه بنـدمٍ لا يُحتمـل، تائهًـا بـين غبطـةٍ تـداعب القلـب، ورهبـةٍ تُكمـم الضـمير. شـعورٌ مزلـزل، كمـوجٍ هـائج لا يعـرف رصـيفٍ يرسـو عليـه. أحاسـب نفسـي المرتجفـة علـى صـلواتٍ أُهملـت، وزيـاراتٍ أُجّلـت، وتقصـيرٍ كبـل الـروح وأبعـدها عن مرافئ الطمأنينة.

ومـع ذلـك، يظـل فـي قلبـي نـورٌ لا يخفـت... تعلـقٌ بـي منـذ الصِـّغر بالإمـام العبـاس عليـه السـلام دون سـواه. كأنـه قـد طُبـع اسـمه فـي داخلـي قبـل أن يُنطـق اسـمي. كـان أخـي الـذي يكبرنـي بسـنتين طفـلا بالكـاد يبلـغ الثانيـة مـن العمـر، كـان ينطـق اسـم "عبـاس" علـى دميـة صـغيرة قبـل أن أرى الـدنيا، وكـأنَّ الاسـم سـبقني إلـى هـذا العـالم. يومهـا كانـت أمـي حامـل بـي بسـتة أشـهر، لـذا قـررت تسـميني عبـاس إن كنـت ولـدا. وكأنهـا بشـارة لأمـي بأنهـا سـتولد ولـدا. ومـن يومهـا، حملتنـي حكايـة الاسـم، حكايـة عشـقٍ صـافٍ، دون تصـنيف أو طائفـة، لكـن لـم يمنعنـي ذلـك مـن حـبٍّ سـماوي تجذّر في القلب بلا إذن أو ترتيب.

رغـم كثـرة المراقـد فـي بـلادي، لـم اراجعهـا إلا نـادرا، لعسـر الظـرف وضـعف الجيـب. حـواجز جعلتنـي أبتهـل عـن بعـد، أرسـل شـوقي فـي صـمتٍ، هـؤلاء اعتبـرتهم جنـودا مـن نـور ربـي علـى الأرض. وأنـا مـؤمن بأنـه لا شـفيع سـوى الله، كمـا قـال تعـالى فـي كتابـه: «ذَٰلِكُـمُ اللَّهُ رَبُّكُـمْ لَـهُ الْمُلْـكُ، وَالَّـذِينَ تَـدْعُونَ مِـن دُونِـهِ مَـا يَمْلِكُـونَ مِـن قِطْمِيـرٍ»، لكنّـي أجد فـي أوليائه أبوابًا يُطرقُ بها باب السماء، وحُبًّا يُداوي غربة القلب.

7- خلال الدراسة الجامعية

هنــاك حــوادث أخــرى حصــلت معــي ولكنهــا بصــورة أقــل حــدة وغيــر مباشــرة، ســأمر علــى ذكرهــا بشــكل ســريع، وهــي حــالات لعبــت دورا فــي رســم خارطــة حيــاتي. بــل كانــت هــي الفصــل والحســم فــي مــروري بمنعطفات الحياة بالشكل الذي مررت به.

منعطفات الصدفة والقدر....

ليســت كــل التحــولات فــي الحيــاة تــأتي بصــوت انفجــار... أحيانًــا، مجــرد تــأخّر بسـيط يغيّـر خارطــة الوجـود بأكملهـا.... الحالـة التـي بصـددها كانـت كضــوءٍ خــاطف يكشــف كــم هــو هــش ذلــك الخــيط الواصــل بــين النجــاة والابــتلاء، ويكــاد لا يُــرى بــالعين المجــردة. حينهــا كنــت طالبًــا فــي جامعــة الســليمانية، أقطــن فــي القســم الــداخلي فــي منطقــة "صــابون كــران"، تلــك القصــــبة الهادئـــة التــــي ترقــــد خلفهـــا مقبـــرة أثريـــة تنـــام فيهـــا أرواح الآشوريين من اصحاب الأرض، تحرسها هضابٌ ووديانٌ سحيقة...

بعــد إجــازة قصــيرة، تــأخرت بهــا مــع أهلــي ليــوم واحــد فــي العــودة للجامعــة، فــي ذلــك اليــوم حصــل مــا لا يخطــر فــي البــال، وعنــد التحــاقي وجـدت مجموعـة مـن الجنـود والشـرطة يحيطـون بالمكـان كـأن القيامـة قـد حضــرت. القســم الــداخلي كــان أشــبه بســاحة حــرب صــغيرة، الغــرف مقلوبـة، الأسِـرّة مكسّـرة، والمطـبخ متبعثـر فـي العـراء تنبعـث منـه فوضـى غريبة...

استفســرت مــن الجنــود لــم كــل هــذا؟..... فقيــل لــي: "فــي الليلــة الماضــية داهمــت مليشــيا البيشــمركة القســم واختطفــت 28 طالبًــا مــن طــلاب العــرب واقتادتهم لجهة مجهولة باتجاه وديان إيران"...

لا أذكــر لــمَ تــأخرت، لكــن القــدر لعــب لعبتــه وجردنــي مــن العنــاء، لــم يجعلني من أن أكون الرقم 29.......

السؤال الذي بقي يدور في فلك ذهني: هل كان الأمر محض صدفة؟ أم أن هناك يدًا خفية رسمت طريقًا لا أراه؟ ظل هذا السؤال يتأرجح في ذهني كلما تذكرت تلك الليلة، وصوت المجهول ينادي من خلف المقبرة القديمة.... أنت لست منهم..

علما هؤلاء التلاميذ لم يكملوا سنتهم الدراسية تلك......

المشهد الآخر كان عابرا، لكنه غير مسار حياتي كاملاً...

قبل نهاية الجامعة بشهر، كنت أسير في شوارع بعقوبة، برفقة فتاة عرفتها من قبل، نزوة شباب عابرة... كانت الأصابع متشابكة، والقلوب غافلة عما حولها. وفي تلك اللحظة التقيت وجها لوجه بأستاذ مادة "الثقافة القومية – منهاج فكر حزب البعث". للخجل الذي اصابني واستيحاءً منه تجاهلته، مثلما يتجاهل الحالم جرس المنبه. تصرفت كبليد دون أن أعر له أي اهتمام، لم أنظر إليه، لم أُسلّم عليه، لكن نظراته اخترقت بدني كالسهم. شعرت بها تطاردني حتى بعد أن افترقنا.

وبعد أسبوعين، عند عودتي لاستلم شهادة التخرج، كانت المفاجأة: أنا الطالب الوحيد من بين 400 طالب راسب في مادته. رغم الظلم، كانت للقدر كلمته...

على إثر تلك العلامة، سُيقت إلى الجبهة كـ"جندي مكلف"، بينما كل زملائي سُوقوا كضباط احتياط. ثم بعد ثلاث سنوات من الحرب جاء قرار انتداب المعلمين للتدريس، القرار شمل الجنود فقط. وبهذا كنت الوحيد من بين كل الدفعة من انتقل من ساحة القتال إلى ساحة التعليم. وكم في الأمر من المفارقة... تجاهلٌ عابر يقود إلى خدمة مجتمعية، ونقمة تتحول إلى نعمة. {وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ

وَعَسَــى أَن تُحِبُّــوا شَــيْئًا وَهُــوَ شَــرٌّ لَّكُــمْ وَاللهُ يَعْلَــمُ وَأَنْــتُمْ لاَ تَعْلَمُــونَ} (البقرة:216). صدق الله العظيم....

8- حوادث الجبهة

قبل وبعد واقع الحلم الذي مر بي مع سيدي ومولاي الأمام العباس، كنت قد تعرضتُ لمواقف شتى مميته، نجوت منها بأعجوبة، لا أعرف كيف نجوت ولا أعرف تفسيرا لما حصل معي، لكنني بقيت حيا اتابع المشهد، الوقت عصيب، الحياة مملة وكئيبة، كل شيء كان ينكسر أمامي وينتهي إلا ذاتي التي تعلقت بالرؤيا. بقيت كسارية العلم ترفرف فوق روابي الأحداث بإيباء.

من هذه المواقف التي تعرضت لها بالجبهة:.....

- انفجار قذيفة هاون 60 ملم على بعد مترين قرب مقطورة الماء.
- انفجار قذيفة مدفع بظهر المرصد على بعد مترين او ثلاثة امتار.
- إطلاق طلقة القناص على مزغل الرصد.
- انفجار اربي جي سفن فوق راسي وانا لا ارتدي خوذة الحماية.
- انفجار قذيفة مدفع ثقيل على بعد 40 مترا وانا متجه لخلفيات موقع قيادة الفيلق.
- سقوط 14 قذيفة مدفع ثقيل داخل حوض موقع القيادة الرعيل.
- سقوط قذيفة مدفع ثقيل على موقعنا في أول لحظات دخولنا جبهة الطيب اصابت عجلة الايفا المحملة بالعتاد الشديد الانفجار والواقفة في وسط الرعيل تنتظر افراغها.
- اكتشافي لعقربة قرب قدمي في ليلة دامسة.
- انقاذي لدورية تائهة
- دعسي على عقربة داخل البسطال.

- مواقف أخرى منها نجاتنا من فخ اراد به ضابط موارب أن يوقع الوحدة في فخه ...الخ.
- حوادث عارضة

ذات يوم سألتُ والدتي، رحمها الله، عن سر حكاية اسمي، "عباس". لم تكن إجابتها من تلك التي تُروى بتخطيطٍ مسبقٍ أو مشاورة أهلٍ أو جيرةٍ، بل كانت جوابًا يحمل مفاجأة القدر. لم يخترني أبي، ولا أمي، ولا أناس لهم باع في السير أو دُربة في الكتب... فقد كانوا أمّيّين، طيّبين، يتصرفون بفطرتهم، ينقادون للنية، ويهتدون بالبديهة.

الذي اختار اسمي هو أخي الأصغر، لم يكن يتكلّم بعد إلا همسات الطفولة، لكنّه تولع باسمٍ لم يكن متداولًا في شجرة العائلة، لا من جهة الأب ولا الأم... وكأن قوى غيبية سرّبت إليه هذا الاسم، أو ربما الملائكة أوحَته له، حتى أُغرم به كما يُغرم طفلٌ بلعبته، هكذا سمّى دميته "عباس"، وتشبّث بالاسم كما يتشبّث القلب بحلمٍ راوده في اليقظة.

فأعجب والديّ، ببساطتهما وطيب سريرتهما، بهذا الولع، وقررا إن جاءنا مولود ذكر، فليُسمَّ "عباس".

إنها ليست صدفة عابرة، بل نزول قدري له أبعادٌ تتجلّى مع الزمن. فالكون بأسره قائم على الأسباب، وكل شيء فيه مدبَّر بإرادة الله... كما قال في كتابه الكريم:.....

"وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ" — صدق الله العظيم.

وهكذا، جاء الاسم إليّ، لا مشيًا على الأرض، بل هبوطًا من السماء كحبات البردِ نزلت على لسان أخي، فالتقطها حبًّا، ولعبًا، وألقًا، حتى أصبحت أنا.

فمن الذي وضع هذا الاسم بلسان طفل بعمر سنة ونصف في أول نطقه؟ أنها المعجزة التي أبحث عنها، وربما توافقت مع خطوط الرؤيا التي أنا بصددها، فأصبحت الحالة لها جذور مرئية وأخرى خفية وهناك وشائج حسية تجمع بينهما. اظنها سلسلة من وحي الغاب الف بينهما فجعل الاحداث عبر تلك المرحلة وما بعدها والمستقبلية القادمة خرزا في مسبحة إلهية صرفة. مسبحة لا للإنسان دخل بها البتة.

وحين عدت للبيت بعد معركة تاج المعارك، شرحت تفاصيل الرؤيا للوالدة وعما حصل معي، ذكرت لها الحلم بتفاصيله، وددت أن أعرف ما هي العلاقة بين أسمي وأسم الإمام عباس عليه السلام,,,,

قالت: .....

- لا أدري... لم يخطر في بالنا تسميتك بهذا الاسم، لكن أخوك تولع به ولعا شديدا، كان يداعب دميته بهذا الاسم، حينها كنت حاملا بالشهر السادس، فقررنا إذا ولدتُ ولدا نسميه عباس. كيف تولع بهذا الاسم؟ كيف حفظه؟ ليس لنا علم بذلك، دون أن يكون لهذا الاسم طارق أو وجود في شجرة العائلة. كأنَّ ربك أراد لك ذلك، كأنه بشارة منه بولادتي ولدا بعد سلسلة بنات قبل أخيك.

الرؤيا غيرت مجرى حياتي وتفكيري وأوجزت حساسيتي في الجبهة، زرعت ثقة بالنفس بعد أن توضحت لي جزء صغير من صورة الحياة، زرعت في نفسي طمأنينة طوال فترة بقائي في الجبهة، ولكن قبل الحلم كنت قد تعرضت لحالتي قتل في الجبهة وفي أول الاسبوعين من التحاقي بها.....

الحادثة الأولى: وقعت هذه الحادثة بعد أسبوع من التحاقي بالجبهة، حينها كُلفت بملء قربة الماء- أو ما يسمى لدينا بالجليكان- من

المقطورة الصغيرة الموضوعة في العراء على بعد 200 متر، تحديدًا في منطقة وسطية بين موقع وحدتنا ومقر سرية المشاة التي كانت منفتحة معنا في ذات القاطع.

كنت لا أزال منتسبًا جديدًا إلى وحدة رعيل الهواوين الثاني، لا أعرف كيف أتصرف، ولا أفهم طبيعة الجبهة بعد؛ كانت هذه أول مهمة تُسند إليّ من قبل أفراد المجموعة التي أسكن معها، بعدما قضيت الأيام الأولى مكرَّمًا من قبلهم، وهم مجموعة من المخبرين والمعينين الذين سبقوني في الخدمة.

بعد أن قسمنا الأدوار - الطبخ، التنظيف، جلب الماء، وغيرها- في جدول منظم، قررنا التناوب في أداء المهام بحكم خطورة المنطقة، فجعلنا لكل فرد دورًا يتبدل دوريًا. كنا قد أعددنا جدولا منسّقا وزّع فيه المهام بدقة.

حين جاء دوري، مشيت بخطى حذرة، متوجسًا من سكون المكان ومن طبيعة الأرض التي لم أعتدها بعد. ما إن بلغت المقطورة، وما أن فتحت صنبورها ليتدفق الماء في القربة؛ حتى هز المكان انفجار أمامي وعلى بُعد مترين بالكاد. دوّى صوت مباغتًا، قاتلًا سكون اللحظة. تناثرت شظاياه حولي، غمر الغبار الأفق، وأنا واقف في مكاني مصعوقًا، غير مصدق ما حدث.

لم أرتبك، لم أفزع؛ فالانفجار لم يمهلني الخوف، باغتني قبل أن صوته يطرق سمعي. لم يسبقه صفير أو صوت نذير، فقط ارتجّ الفضاء فجأة بالغبار والدخان. كنت وقتها غريرًا، عديم خبرة ودراية، لا أدرك المخاطر. أول مرة تنفجر قذيفة بهذه المسافة مني. كنت معتادًا على أصوات القذائف البعيدة وهي تصافح أذني بصدى متقطع، لكنها هذه قصدتني؛ وكأنها أُرسلت لتنهي حياتي.

عـدت إلـى الملجـأ حـاملًا الجليكـان، مكللًا بالغبـار، والـذهول يكسـو وجهـي. اسـتقبلني أفـراد الرعيـل بالأحضـان، وكـأنهم كـانوا يترقبـونني وأنـا أتجـه للمقطـورة. عنـدها أخبرنـي أحـد ذوات الخبـرة بـأن القنبـرة مـن نـوع هـاون عيـار 60 ملـم، تُعـرف بــ"الخَرْساء"؛ لا يُسـمع لهـا صـوتٌ قبـل أن تنفجـر. تعـرف بالخبيثـة، لا فرصـة لتجنبهـا، ولا أحـد ينجـو مـن أثرها... إلا أنني نجوت بأعجوبة.

قـالوا لـي: إن الله كتـب لـك عمـرًا جديـدًا..... لا زلـت عـاجزًا عـن فهـم كيـف نجـوت منهـا، لا أعلـم أيـن تفرّقـت شـظاياها، لكـن الـزملاء وصـفوني حينها بـ"السيد"؛ إذ لا ينجو أحد من موتٍ كهذا إلا بمعجزة.

كانـت مـدافعنا محشـورة فـي مقدمـة الركـب مـع خطـوط التمـاس، ترافـق سـرايا المشـاة، علـى بُعـد كيلـومتر ونصـف تقريبًـا مـن سـاتر الحجابـات. إلـى يسـارنا يتمركـز رعيـل دبابـات، فيمـا أمامنـا وعلـى الجانـب الأيمـن انتشر فوج المشاة المنفتح معنا.

الجبهـة آنـذاك كانـت مرسـومة علـى الأرض كلوحـة تعبيريـة مثيـرة للجـدل، تنـبض بالتعقيـد، تتـداخل فيهـا السـواتر كتشـابك أعـواد أعشـاش الطيـور، يصـعب تفكيـك خطوطهـا لكثـرة تـداخلها. لتسـاعد المشـاة والمعجـلات علـى الحركـة، تُسـهل وصـول إمـدادات التمـوين وصـهاريج البنزين لتغذية الدبابات وعجلة القصعة وناقلات الجنود والعتاد....

زملائـي كـانوا يترقبـونني وأنـا أقـف بجـوار مقطـورة المـاء، يحـدوهم القلـق وتغمـرهم مشـاعر مختلطـة مـن الشـفقة والخشـية. حـين عـدت تهللـت وجـوههم فرحًـا، وهنـأوني علـى نجـاتي. فقـد شـهدوا المشـهد كـاملاً ادركـوا بغموضـه وخبثـه. رأوا جنـون القذيفـة وهـي تتبـع ظلـي، تلفنـي بعصـفها وغبارهـا كعبـاءة ليـلٍ داكـن، لتمسـوا دخانهـا الكثيـف. تلـك التـي ازكمـت أنفـي برائحـة البـارود، ازكمـت أرواحهـم بـالفزع. كـأنهم سـمعوا حوارهـا

معي حين عاتبتني على تواجدي في المكان الخطأ، حين لامتني بصراخها لأتخذ حذري في المرات القادمة.

هزّت مشاعري بوجل، وجلجلت فكري، لأفقه نوع جدالها وأسلوب المنازلة في الميدان. علّني أتعلم من التجربة كي لا أحمّلها ذنب عبثي، كي أتجنب الأماكن المشبوهة، وأقدّر الموقف قبل أن أخطو في الميدان.

بصرختها صفعت سكوني، لم أملك جوابًا لسؤالها: "لم أنت هنا؟ في هذا الموقع البليد؟" خنقني الصمت، جبهة لا عهد لي بها، حيث رائحة الموت تعم المكان. تلك القذيفة بدا وكأنها فهمت ما لم أقدر على البوح به، وعكفت عن اتهامي، تاركة لي أن أقرأ ملامحها التي نطقت بالشفقة، وارتقت بدخانها إلى حيث لا يصل إليه سوى الخوف والارتياب.

تلك اللحظة أولى خطواتي في الجبهة، أول ارتطام لذاتي بواقع لا يرحم. بعدها انعزلت، صرت أراجع ذاتي، أستجوب مشاعري، أحصي غايات نفسي وسط دوامة العبث. صار الخوف رفيقي، يسكن خلايا جسدي، لا أغادر إلا للضرورة، والسلوك الحذر بات عنواني بين الزملاء، فهموا قلة تجربتي وربما رقّة شعوري.

ذلك الموقف ترك بصمة لا تُمحى على جدار القلب، كنقش الحجر. بات الدخان شبحًا يطاردني في يقظتي ومنامي، يرسم لي ملامح البؤس، مثقلًا بالوجع والغموض. أسأل نفسي: إن تعوقت، كيف سأكمل ما تبقى من الحياة؟

الحياة في الجبهة لا تُقاس بهدوئها أو فوضاها، بل بعلاقة الفرد بالحظ ورحمة الإله. فالقنبرة التي تسقط لا تأتي بالعبث فحسب، بل تحمل في شظاياها مصائب تُنثرها على من قلّ حظهم. تلك التي سقطت أمامي

جاءت بكل ما فيها من حنق وغل، لم أحتسب لشرها ولا لزمنها ولا لبؤسها. حلت كقدرٍ مباغت، أرادت قطف زهرة العمر بأمواسها المتطايرة، لولا يد الرحمن التي كفت شرها عني، فشتّتت عزم الشظايا وانتشلتني من غلّها.

****

الحالة الثانية

في المرصد كنت والمخابر سالم نتداول حال الجبهة ومصيرنا وسط نزال يبدو بلا نهاية، حين باغتنا وابل من رشقات سلاح البي كي سي، كادت أن تصيبنا لولا انبطاحنا على سفح الساتر الترابي، إذ اخترقتنا فجأة دون سابق إنذار، ولم نشعر إلا بأزيزها يعبر فوقنا.

كان العدو دائمًا يمشط القاطع بهذه الرشقات، صباحًا ومساءً، خصوصًا عند الغروب، وأحيانًا في أوقات السحر. يتصيد بها الغافلين من الجنود؛ أولئك الذين خرجوا لقضاء حاجة، أو للاستحمام، أو انتقلوا بين الملاجئ لهدف ما أو طلبًا للتسلية... أُطلقت تلك الرصاصات لصيد المتحررين من قيود الروتين، أولئك الهاربين خلف تفاصيلهم الشخصية، أو المنفذين لأوامر قُدِّرت عليهم. الرصاصات المذنبة التي تجاوزتنا، اخترقت هواجسنا وهي تحلق فوق رؤوسنا، تبحث عن قليلي الحظ. بدا المنظر من زاوية الكاميرا كشُرَرِ نارٍ غاضبة تنبعث من منقار طائر الفينيق، ترسل شراراتها نحو السواتر، الرصاص المنفلت يهطل بشكلٍ مقوسٍ خلفنا.

كنا منبطحين دون قدرة على رفع الرأس أو اليد، إذ لا ترتفع أجسادنا سوى بمترٍ عن الأرض، وأزيزها المصدَّع يحذرنا من أي حركة. تلك الطلقات كانت رسائل قدرٍ وغدرٍ، تصل إلى كل من نسي ذاته. كل

إطلاقـة صـرخة توجـه للمنفلتـين، رسـائل تصـل دون اسـتئذان... وهـذا مـا علمناه من ذلك الأزيز الدائر فوق رؤوسنا.

كانـت الحالـة مقلقـة إلـى حـد بعيـد، نجونـا بأعجوبـة مـن رشـقات مباشـرة ومتكـررة أربكـت حواسـنا وزعزعـت يقيننـا. خطـرٌ يحـوم حولنـا بـلا انقطـاع، ممـا جعـل الحـذر واجبًـا لا مجـال للتهـاون فيـه. الجبهـة كانـت أشـبه بغابـةٍ متوحشـة، تمـوج بالثعـابين والعقـارب والحشـرات. لا يـدري المـرء متـى تلسـعه بعوضـة، أو تنهشـه نملـة، أو تباغتـه خنفسـانة تتسـلل من بين شقوق المجهول.

أمـا أزيـز الشـظايا والرصـاص المتطـاير، فكـان يقـتحم أسـماعنا بجنـون، يلطّـخ وجـه الأمـان برعـبٍ صـامت. كنـت أحـاور نفسـي حينهـا، وأقـول لها:

"يـا نفس، إيّـاكِ والغفلـة... فـالموت يحـدّق بنـا كسـورٍ لا فكـاك منـه، ونحـن محاصرون داخله كأسارى لا صوت لهم."

الـزمن لـم يعـد زمنًـا كمـا نعرفـه، بـل غـدا غيمـة يائسـة فرغـت مـا بـداخلها، تسـحبنا مـن واقـعٍ منهـك إلـى واقـعٍ أكثـر تعبًـا وانطفـاءً. السـور الـذي كـان يبـدو بعيـدًا، صـار تضـيق علينـا حلقاتـه، حتـى بتنـا نشـعر بأختنـاق ملمـوسٍ مع مرور الأيام.

بـدأت العُقَـد النفسـية تخـرج مـن مكامنهـا، تتغـذى علـى كـوابيس العـيش، تنمـو بـين تفاصـيل الزمـان والمكـان، تسـتوطن أفكارنـا كألغـامٍ نفسـية، مـا إن تلامسـها حتـى تنفجـر، وتغيّـر وجـه الحيـاة. المخـاوف نخـرَت الجسـد، أضـعفته، شـلّت قـواه، وخنقـت طموحاتنـا الفتيـة. صـار الحـذر يتصـاعد كـدخان فـي سـماء الأيـام، وكلمـا زاد، انفلـت الخطـر مـن عنـق الزمـان، فليس من ضمان للنجاة في كل مرة.

كنا أشبه بحشراتٍ زاحفة، ننكمش في جحورنا ونرتعد من زمهرير القدر. داخل بقعةٍ مقطوعة، جرداء، بلا ماء ولا ظل، بلا أملٍ يُستظل به أو وردةٍ تُريح البصر، بلا قمرٍ يرسم العزاء في ليلٍ موحش، ولا نسيمٍ يُطمئن القلب. وحدها النجوم، سابحة في الفضاء، تلهينا لحظات قبل أن تعيدنا إلى واقعنا الثقيل.

كنا نعمل تحت خط الحب، بلا عاطفة، بلا مرافقة، بلا أحلام. رؤيا مشوشة تجيش عين طفل، كطيرٍ مهاجرٍ فقد بوصلته، لا أثر لنا في هوامش الزمن سوى ذكريات نخاف عليها أكثر مما نأمل بها، علّها ترفق بنا ذات يوم.

كنا نعلم تمامًا أننا نُقحم انفسنا تحت برج الثور الذي لا يرحم. خطنا المستقيم على خارطة القدر يتلاعب بأعصابنا، يمارس عبثه بطقوسٍ غريبة، حتى غدونا كورقةٍ شفافة في مهبّ الريح، عالقة في تيار المصير، دون القدرة على تخطي خطوطه الحمراء.

9- معاناة المرصد

على الخط الفاصل بين الموت والحياة

في مستهلّ مشواري إلى الجبهة، كنت كما الوليد في هيئته الأولى: بريئًا، متألقًا بقيافة الجندي الجديد، غير مدرك لما تخبئه الأقدار من خنادق الرعب والقلق والارتباك. لم تمضِ سوى لحظات حتى اجتاحتني موجات من القلق والشجن، أربكت حساباتي ومسارات التفكير، وأفضت إلى توتر عصبي، حاصرني بخوف داخلي من تبعية المصير المؤجل، والذي بدا قاب قوسين أو أدنى حسب درجة الخطورة المرتفعة في الخطوط الامامية.

أدركت أن الجرة لا تسلم كل مرة كما يقول المثل، وأن الحرب ليست لعبة نمارسها حتى لو بلغنا الحرفية في القتال. في كلتا الحالتين، نصرًا كان أم هزيمة، تظل الحرب خسارة مادية ونفسية في أضعف الحلات. فأنا اقف على الحد الفاصل بين الموت والعوق والحياة، لا أدري إن كنت حيًا بجسدي أم ميتًا بمشاعري، فالحالتان تندمجان في كيان واحد.

بدأ ذلك البعبع المختبئ في أعماقي يتحرك، يتمرد، يسرق نبضي، يسلخ إرادتي، ويخطف مني لُبّي. صرت أتنفس ريح الموت دون أن أموت، وأحيا بالأمل دون أن أتلذذ بالحياة. كنت أتأرجح بين نقطة البداية والنهاية كبندول لا يعرف أن يستكين، كدمية معلقة بخيط واهن لا تملك الخيار ولا الفرار من اللعبة اللئيمة.

شهران من القلق المستمر مرّا كدهر من الزمن. حتى الإجازة التي حصلت عليها، لم تروِ ظمأي للهدوء الذي عشته بين الأهل، كسكران لا يدرك محيطه، لم أسمع خلالها سوى أنباءٍ مزعجة: استشهد فلان، وفلان فقد أطرافه، خيبات، زيجات مفاجئة، وانطفاء حلم الحب في

قلوب من راهنوا عليه. لم تشغلني الفتاة التي كنت أفكر بها، وكأن الحرب اجتثّت مني جذور العاطفة.

سحقتُ أيام الإجازة بأوراقها كمن يلقيها في جيب بنطاله الخلفي دون اكتراث، وعدت للجبهة مثقلًا بحمل مضاعف من الاكتئاب الشخصي والعام، وكأنني وضعت كل أحداثها في مظروفٍ سري ثم أرسلته إلى التاريخ، وعدت أبحث عن ذاتي بين سطور مجلدات الحرب.

وبعد العودة، نقلت إلى الرعيل الأول، وهناك حدث التحول حين باغتني الحلم: جاء في ليلة من ليالي القلق ليكنس الوجل والخوف والقلق من الذات. علامة جاء بها الإمام العباس عليه السلام، ذاك الذي لم يفارقني منذ أن عرفتني الذاكرة. أكرمني برؤيا غيّرت مسرى حياتي؛ جعلتني أشعر براحة نفسية أروع من كل انتصار مادي، أهداني يقينًا لا يُشترى. باتت روحي محصنة، يغمرها نور يشفّ عن الطمأنينة، أستنشق الأمل في ساحة موت، وأفكر بمستقبلي كأنني على شاطئ هادئ. تلك الرؤيا أزالت وجلي، وأعادت طفولتي وشبابي وأحلامي إلى القلب من جديد، أهدتني مركبًا يسير بي نحو الغد بثقة وسكون.

بقيت في الجبهة ثلاث سنوات، كنت خلالها برتبة نائب عريف، معاونًا في وحدة هواوين ثقيل، وجدت أن الإنسان مسيّر في معظم شؤونه، وأن الحرب ليست فقط قتالًا، بل اختبارا لفكر الإنسان وروحه، اختبارا يجردنا من المظاهر ويتركنا حفاة أمام القدر.

في الرعيل الأول حيث المرصد المشؤوم القابع في خشم المواجهة. هناك تفحم صبري بالقلق والوجس، حتى حلّ ذلك الحلم، كقدر غير مسار حياتي، دافعًا بي نحو مصب الأمان والاطمئنان. تغيّر الطريق بشكل يصعب تصديقه؛ تفاديت المطبات والانحرافات بلحظة غفلة، وشعرت أن الطريق أمامي بات مغايرًا لما عهدته. الرؤيا جعلتني

أعـيش قـدري الجديـد بتفـاؤل لـم أعهـده فـي أقـداري السـابقة، ولـم يشـبه أقدار رفاقي في الوحدة.

كـل مـن كـان معنـا فـي الجبهـة كـان يخـوض هـذه المعركـة الوجوديـة بشـكل أو بـآخر، كـلٌّ حسـب ثقافتـه وتربيتـه وأهدافـه، لكننـي كنـت أهجـس بـأني أسـبح بعكـس التيـار، أننـي مختلـف فـي رؤيتـي وتقـديري، وكـأن هنـاك علامـة روحيـة تُنيـر طريقـي. وجـدت راحتـي النفسـية فـي ذلـك الشـعور بكلمـات الإمـام العبـاس عليـه السـلام، التـي لا تفـارق الـذاكرة. منـذ أن وعيـت، وأنـا أشـعر بربـاط روحـي يجمعنـي بـه؛ علاقـة خفيـة، طـاهرة، مبنية على الاندماج والتسامي الإيماني والفكري دون إرادة.

كـان ذلـك قـدرًا خاصًـا، لمسـته مختلفًـا عـن كـل مـا مـررتُ بـه مـن محـن وسـنوات قاسـية. قـدرٌ مغـزول بحبـال الطمأنينـة، مـزدانٌ بـألق الصـورة وجـلال الإحسـاس، مـرّ بـي وحـدي، كأنـه اختـارني لأمـرٍ لا أعرفـه. انتشـلني مـن حالـة الخنـوع إلـى حالـة الأنفـة، ومـن العبـث إلـى عـالم أكثـر فطنـة وثقـة، عـالم تحكمـه النعومـة والصـبر والرّجـاء. كُرمـت بنـور الشـمس، وضـياء القمـر، وسـطوع النجـوم؛ جميعهـا تحولـت إلـى مجوهرات روحية بين يدي، تُسقيني سكينة وهدوءًا.

جـاءني ذلـك الطيـر، يحمـل الأمـان فـي جناحيـه، ويهـدي إلـيّ شـمس الصـباح ونسـيم الفجـر، يرافقنـي إلـى حيـث قطـوف النعـيم دانيـة، والأمـل ينسـاب بـين السـحب، كأنـه نهـر مـن عسـل، يرشـدني بصـوت العقـل ورقّـة القلـب نحـو الشـواطئ الهادئـة، ومسـرات الحـب التـي تتـراقص علـى أمواج المساء.

لكـن رغـم كـل هـذا، تبقـى الأسـئلة معلّقـة، والحقـائق مسـتترة، فـإن الإنسـان مهمـا بلـغ، لا يختـرق حجـاب الغمـوض ولا يقـتحم أسـرار الغيـب التـي ظلـت ترفـرف فـوق رأسـي، ومـا يترسـخ فـي صـلب العلاقـة بـين الإنسـان والمجهـول. هكـذا شـعرت بـه حـين حـل. كأنـه أمـتص سـموم الجسـد

المتعـب، زال عـن كـاهلي الإرهـاق والعنـاء، خلّـص ذهنـي مـن الوجـل والارتبـاك، وكـنس القلـق عـن قلبـي. لـم يكـن حلمًـا عـابرًا، بـل رؤيـا ساحرة، إبرة مخدرة اسكنت ألمي النفسي والجسدي والفكري.

الحالـة مـع الايـام نضـجت كعناقيـد كـرومٍ، مكمّـلًا لعقـدة الأحـلام التـي راودتنـي قبـل أن تشـتعل شـرارة الحـرب. بجنوحـه نحـو مرافـئ روحـي، بعـث فيهـا نشـوة الطفولـة مـن جديـد، فنثـر فـي صـدري تـأملات وأشـواق الشـباب. جعلنـي أركـب مركـب السـفر إلـى مسـتقبلٍ اليقـين، لا أعبـأ بمحيطـي ولا بـالظروف المجنونـة التـي تحاصـرني. جعلنـي أسـتعيد حبيبتـي، أحبـائي، آمـالي، وكأنـه رسـالة سـماوية حلّـت عقـدتي وبشّـرتني بالشفاء والارتقاء.

كانـت رؤيـا تشـبه الغفـران، كأنهـا غسـلت ذنـوبي ومحـت كآبـة فكـري، ونقلتنـي خـارج قـوس الظـرف البـائس. رأيـت فيهـا كرامـات شملت الحيـاة كلهـا، آنيـةً ومسـتقبلية، جعلتنـي أحـرص علـى كتمـان السـر؛ خشـية أن يفسـد فحـوى الرؤيـا إن بحـت بهـا. انتويـت أن أشـيعها يومًـا بـين المنـافقين والدجالين لعلّهم يرعوون.

الرؤيـا جـاءت جـاهزة... كصُـرّة أمـل وكنـزٍ فـي طريـق طويـل لا قافلـة تؤمـه، لتنتشـلني مـن عثـرات الـزمن القـادم. لـم تكـن مجـرد حلـم، بـل وصــفٌ لــوحيٍ أو مــلاكٍ، صــفّ بجــانبي وضــاحكٌ كــالنجم الطــارق، ليضــيء مشـواري المجهـول دون عقـد. كانـت الطريـق مسـرىً مسـوّرًا بالورود، من وحي الغاب والخيال.

جـاءت الرؤيـا مـن عمـق المطلـق، مـن جـوف الغيـب، زرعـت فـي قلبـي الطمأنينـة وفـي شـفاهي ابتسـامة، وجعلتنـي أشـعر بقـوة خفيـة تحصـنني. رأيـت آثارهـا فـي حـوادث لا تفسـير لهـا سـوى أنهـا كرامـات الإمـام العبـاس عليـه السـلام. مكثـت فـي الجبهـة ثـلاث سـنوات مـن أصـل ثمانيـة،

فزادتنــي قناعــةً بالقـدر، وشـدت مـن أزري وسـط ظـروفٍ قـاهرة يسـتحيل فيها تفسير الحالة إلا من منطلق الغيب.

10- الخلاء

بنـي الخـلاء فـي العـراء، فـي نفطـة ميتـة، اصـفها كـأرض نـز أو بـور أو مستنقع أو شـيء مـن ذلـك، تسـتبيحها المحـاذير التـي تثلـب المقـاتلين، بقعـة غـل لا تشـبه الجبهـة للسـخط الـذي ينفجـر فيهـا، انتصـب كجـرح مفتـوح وسـط أرض تنـزّ بـالأحزان. كأنهـا أرض مسـكونة بـالجن والشـياطين، للقلـق المغـروز فيهـا، لـلأرق الـذي يصـيب المقاتـل حـين تطأهـا قـدماه. هـي حالـة نفسـية لـيس إلا، ليسـت مجـرد حفـرة لقضـاء الحاجـة، بـل نقطـة انهيـار نفسـي تتجلـى فيهـا مشـاعر القلـق والأرق، لأن معظـم الـذين يصـابون بشـظايا مـن مقاتلينـا يصـابون فـي تلـك البقعـة المسـكونة، حيـث يرتكز عليها القصف المطلق من الجبهتين الشرقية والجنوبية..

لـيس للعـدو مقصـدٌ فيهـا، لكنـه يقصـف مـا خلـف السـاتر، حيـث يقـع الخـلاء علـى بعـد نحـو 100 متـر، ضـمن زاويـة عميـاء بـين السـاتر والمرصـد. هنـاك، تتجـدد الحركـة اللوجسـتية: دبابـات، عجـلات تمـوين، غبـار يعلـو ويشـير، كأنـه نـذير شـؤم يفضـح وجودنـا. فتنهمـر القـذائف وتسـتقر معظـم الشـظايا فـي هـذه البقعـة الخبيثـة، التـي لـو أُعيـد بناؤهـا بمحـاذاة السـاتر، لانخفض عدد الإصابات.

لـم يكـن خـلاء وحـدتنا الوحيـد، بـل تكدسـت فيـه مرافـق كـل السـرّيات. رائحـة نتنـة تفـوح، تقـرف النفـوس وتثقلهـا. بنـى مـن صـفائح الألمنيـوم الملّطخـة بـالطين، يتصـل بـه خنـدق متعـرج، كثعبـان يلتـوي ليصـل الـرأس بالذيل: الخلاء بالمرصد.

يتكـون مـن حفـرة عميقـة، مغطـاة بخشـب وصـفائح، تكسـوها طبقـة ترابيـة. فوهـة الجلـوس مرصوصـة ببلـوك إسـمنتي، تحـيط بهـا أسـراب الـذباب والديـدان، تحتشـد تحـت وطـأة نـتنٍ لا يُطـاق. إلـى جانبـه، حمـام مماثـل، سـقفه مـن خـوص ليحجـب حـر الشـمس وقسـوة الشـتاء، وأرضـه فرشـت ببساط بلاستيكي يؤدي الغرض.. .

من الطبيعي الذي يتجه للخلاء عليه أن يحمل أبريقه معه، يملأ الأبريق بالماء من المقطورة الموضوعة خلف الساتر الحدودي قبل أن يتجه للخلاء. غالبا لا تتوفر أباريق فتعوض بدلا عنها بقوارير ماء بلاستيكية. فعلى صاحب الحاجة أن يتجه إلى المقطورة أولا ليملئها قبل أن يتوجه للخلاء مارا بخندق الثعبان ليقوده لنهاية المطاف لقضاء حاجته، وكل من يذهب للخلاء يسلم أمره لله والقدر، يتشهد في الطريق وهو ذاهب، ويدعو الله أن يجنبه المخاطر وهو عائد لوكره أن يصل سالما معافى.

المسألة غاية في الصعوبة نفسيا، المسافة تعتبر طويلة قياسا بدرجة الخطورة التي تتبع المنطقة، الخطورة التي يتعرض لها المقاتل في تلك البقعة فوق العادة، هي بمثابة القمة، وإذا ما وددنا تقيمها من ناحية تلك القياسات بجدلية الربح والخسارة من تلك الحسابات المعقدة، دائما ما تميل الكفة إلى جانب العقدة التي يدركها الجميع، حيث أكثر المشاكل التي يتعرض لها المقاتل تكمن في تلك النقطة، لأنها غير محصنة، مكشوفة، ولابد كل مقاتل أن يزورها في اليوم مرة على الأقل، والله يساعد الشخص المسهل من المقاتلين، الذي عليه أن يراجع ملفات بطنه كل ساعة هههههه. أيــــــــــــه.

نعم، إن أكثر إصابات المقاتلين تحدث أثناء قضاء الحاجة في تلك البقعة الميتة من الجبهة، فالمقاتل لا يتخلص من ضيق معدته ولا يستعيد كرامته إلا بفضّ مخرجاته في تلك البؤرة المخيفة. وكأن العدو يدرك تماماً مرام المقاتلين، يترصد حركتهم بدقة، ويطلق قذائفه عبثياً ولكن بانتظام على تلك الزاوية المهملة صباحاً ومساءً.

الوضع محرج إلى حدٍ بالغ، خاصة وأن القصف يتكرر بشكل يومي بين السادسة والثامنة صباحاً، ويعود بذات الوحشية عند الغروب. ومع شروق الشمس، حين تنشط الحركة، وقبيل أفولها، حين تبدأ

الأرواح بـالتهيؤ للسـكينة، يمطرنـا العـدو بقنابـل انفلاقيـة جويـة، أو يقصـفنا بقـذائف هـاون خفيفـة، وقـد يلجـأ للمـدافع الثقيلـة بعيـدة المـدى إذا شـكّ بتحـرك خلـف السـاتر بفعـل غبـار مرتفـع أو صـوت محـرّك أو جنـازير دبابـة. دائمًـا مـا تسـتفزه الضوضـاء أو الغبـار المنبعـث فـوق الساتر، فينهال علينا برشاشه، ممشّطًا المنطقة برصاص الـ PKC.

لا مفـر مـن قضـاء الحاجـة مـرة أو مـرتين يوميًـا علـى الأقـل، مـا يضـع المقاتـل وجهـاً لوجـه مـع المـوت. فيمـا يصـبح التبـول، بتكـراره الطبيعـي (خمـس إلـى ثمـاني مـرات يوميًـا)، مخـاطرة إضـافية، وحينهـا يكـاد يكـون الخطـر ملاحقـاً علـى مـدار السـاعة. حتـى فـي مـأوى المقاتـل، داخـل "بـرج مشيد"، لا تختفي التهديدات، فالقصف لا يعترف بتحصينات.

إنهـا مأسـاة تُختصـر فـي مشـهد بسـيط، ولكنـه يحمـل مـن الرعـب مـا يعجـز عـن حملـه قلـبٌ بشـري، ومـن يوميـات الاسـتهداف مـا يفضـح همجيـة حرب تستهدف أضعف لحظات الإنسان.

أنهـا الحالـة الروتينيـة اليوميـة لمعيشـة المقاتـل فـي أيـام الجبهـة الهادئـة فمـا بالـك فـي لحظـة اشـتداد الـوطيس؟!!!. لتكرارهـا أضـحت حالـة طبيعيـة وروتينيـة تعـود عليهـا المقاتـل، أصـبحت جـزء مـن المنهـاج الـدوري واليـومي، ينـال حصـته كمـا ينـال حصـته مـن التمـوين والقصـعة كـي يبقـى قائما في محله.

فـي زاويـة منسـية مـن خطـوط النـار، حيـث الرصـاص لا يميـز بـين مقاتـل وقـارئ، تنـبض أزمـة يوميـة لا توثقهـا كتـب التـاريخ. بـل يفرضـها الـروتين كقيـد يـومي، حتـى باتـت الحاجـة الجسـدية تُحاصـر الـروح أكثـر مما تفعل الجراح.

كـل صـباح يبـدأ مشـوار القلـق مـن لحظـة حمـل الأبريـق ولغايـة العـودة للملجـأ سـالما معـافى وهـو معلـق بخـيط الرحمـة، لا ضـير أن يستشـهد

وهو يقاتل على أن يُقتل وهو محاصر داخليا بفضلات جسده.. قد لا تكفي فترة نصف ساعة إذا ما وجد تنافسا بين الانتظار والدخول والعودة، وكأنها رحلة عبور من عالم الإنسان إلى عالم البقاء. ربما يجلس على دكّة الانتظار فترة إضافية لتجاوز حالة المنافسة. وعندما يُفتح له باب الدخول، يبدأ ما يشبه عملية "تركيب ضوئي" حتى يخرج من كوة العناء، يتنفس، يتحول. كفراشة خرجت من شرنقتها الموحلة، محمّلةً بطاقة قادرة على استئناف القتال لا لتنتصر فقط، بل لتثبت أنّ الإنسان لا يزال يحاول استعادة كرامته في أكثر لحظاته هشاشة.... لا ضير أن يُستشهد مقاتلٌ وهو يقاتل، لكن أن يقتل وهو يحمل عبء جسده تلك مشكلة. فالحالة النفسية تصاب بنزف حاد، تصور حظ من يموت وهو يقضي حاجته، ذلك الشعور المرهق الذي يحتد بفكر كل مقاتل، يتفاعل مع تفكيره الداخلي فيفرز عنها قلق دائم خلال ذهابه وإيابه..

العملية شاقة، فيها جهد فكري وبدني، فيها حسابات نفسية وعملية، فيها جدل ومطاوعة ورجاء، فيها بناء الذات من جديد، فيها تفكير منطقي بالمصير، ترى كم يحتمل الإنسان هذه التجارب وهو مكره عليها، كم يحتمل البقاء في مواجهة العقد وهو صامت أخرس لا يستطيع إبداء الرأي أمام حاجة الوطن من جهة وأمام الأوامر الصارمة من قبل القيادة من جهة أخرى.

لذا تجد الكثير من الجنود ممن لا يملك شيئا في الوطن يفكر بالهرب، يفر من الجبهة التي يدافع بها بروحه المنهكة عن أصحاب المال والعقارات من الذين يشترون أرواحهم وأرواح أبنائهم بالمال وبدفع الرشاوي، كي لا تطأ أقدامهم خطوط الجبهة.

المشكلة الرئيسية، بأن أصحاب القرار يفرضون أقسى العقوبات على الفارين من الجبهة، فيما يلينوا أمام أصحاب النفوذ والكؤوس وذوات

رؤوس الأمـوال. تلـك العلامـة الفارقـة التـي يتحسسـها المقاتـل دون أن يسـتطيع أن يصـرح بهـا لآمريـه أو يصـرخ بوجـه العدالـة الزائفـة. لـذا كثيـرا مـا كنـت أمسك نفسـي خـلال فتـرة الـذروة التـي تشـتعل بهـا الجبهـة، ولكـن أحيانـا لا أحتمـل الامسـاك فـأنزوي خلـف غرضـي رغـم المخـاطر المحيطة بي.

إذا فـي أحـدى المـرات التـي وددت بهـا أن أقضـي حـاجتي؛ كنـت قـد تعرضـت لحالـة غدر خـلال عـودتي مـن الخـلاء للمرصـد، وأنـا أسـير فـي الخنـدق المتعـرج وفـي منتصـف ذلـك الـدهليز أو المتاهـة مـن الخنـدق، وذلـك بعـد أن قضـيت حـاجتي وأنـا أشـعر بخفـة الجسـد وبـروح مفعمـة بالنشـاط خـلال العـودة لكـن فجـأة، ودون سـابق إنـذار أو علامـةٍ تحذيريـة، وعلـى حـين غفلـةٍ منّـي، انفجـرت قذيفـة مـن نـوع (RPG-7) تمامًـا فـوق مـؤخرة رأسـي، وعلـى ارتفـاع لا يزيـد عـن متـرين. لـم أكـن أرتـدي خـوذةً تقـي الـرأس، فلـم أشـعر بهـا إلا عنـدما دوّى صـوت الانفجـار، يختـرق أذني كالصاعقة.

وكـم كانـت الصـدمة عظيمـة حـين سـقط ذيـل القذيفـة علـى الأرض، لا يفصلني عنـه سـوى قدمٍ واحـدة، داخـل الخنـدق الضـيق الـذي احتـواني فـي تلك اللحظة.

غريـبٌ كيـف أن هـذه القذيفـة، المعروفـة بشـدتها ضـد الـدروع والبنايـات، انفجـرت دون أن تصـيب جسـدي، رغـم أنهـا تكـاد أن تكـون أسـرع مـن الصـوت. لـم أسـمع لهـا صـفيرًا، فالصـوت لـم يسـبق الانفجـار، ومـا رأيتـه هـو دخـانٌ أسـود وفضـي يتصـاعد نحـو السـماء، كقـارب شـراعي يتهـادى فـوق رأسـي، وكـان باسـتطاعتي أن ألمـس أطرافـه لـو مـددت يـدي. تلـك اللحظـة جعلتنـي أراجـع نفسـي، أفكـاري، احتيـاطي، وحـذري... كأنهـا صـيحة تنبيـه مـن الله أن السـلامة ليسـت مضـمونة، والحيـاة معلقـة بخـيطٍ من لطفه العظيم.

وفـي هـذا المشـهد، تـذكّرت رؤيـا الإمـام عبـاس عليـه السـلام، التـي لـم تكـن حلمًــا عــابرًا، بــل رؤيــا انغرســت فــي كيــاني... رؤيــا تحمــل حكمــةً وغموضًـا لا يُفسـر بالعقـل، بـل يُشـعر بـالروح. صـرت أشـعر بـأن الأقـدار ليسـت سـوى خيـوط شـبكية تسـبح فـي محـيط الـزمن، كـل عقـدة فيهـا تحكـي قصــة، تحــدد لحظــة، وتفسّــر موقفًــا. ولعــل هــذه القذيفــة، كانــت عقــدتي التــي مــررت بهــا، لتعيــد توجيــه بصــيرتي إلــى الاحتيــاط، والتفكــر فــي معنــى الحياة والموت.

كـل شــيء فــي تلــك اللحظــة كــان لغــزًا. ذيــل القذيفــة وهــو أنبــوبٌ حديــدي بطــول قــدم لســخونته نتيجــة الانفجــار يكفــي بــأن يكــون ســلاحا قــاتلا لــو ســقط علــى رأســي... تــرى الشــظايا أيــن ذهبــت؟ كيــف لــم تصــبني؟ كيــف نجــوت مــن قــوة قــادرة علــى تفتيــت دبابــة؟ إنّــه لطــف الله، لا شــيء ســواه. فــي النهايــة، عــدت إلــى المرصــد وســاقاي ترتجفــان، فــي خنــدق لا يتعــدى عرضــه قــدمين، وأشــباح الانفجــار تلاحقنــي فــي أذنــيّ، كأنهــا تــردد صــوت الحيــاة والمــوت... كــل خطــوة عبثيــة لكنهــا محســوبة، وكــل شــعورٍ طــارئ لكنــه عميــق. علمــا بــأن القذيفــة مــداها 500 متــر، فــي حالــة لــم تصــادف أمامها هدفا معين، فأنها تنفجر.

11- حادثتا المرصد

في المرصد الذي اعتدتُ ارتياده، كنت برفقة زملائي من قوات المشاة والمخابر المرافق لي دائمًا، تحسبًا لأي طارئ. أحيانًا، يغمر دفء الجماعة الإنسان فينسى همومه، ولا يلتفت لما يحيط به؛ حالة طبيعية في ظل رتابة الحياة وضغطها الثقيل، الذي يدور فينا كرحى لا تهدأ. كنا منهمكين بنقاشٍ حول وضع الجبهة، واقفين في دائرة داخل المرصد المطلّ على الجبهة الجنوبية، عند الثالثة عصرًا، غير آبهين بالزمن أو ما يدور حولنا. لم أكن منتبهًا حتى لوضع رأسي الذي شغل فتحة المزغل المخصصة لرصد تحركات العدو.

رويدًا، تحوّل الحديث إلى ما يشغل بال المقاتلين من تداعيات الحرب ونتائج معركة شرق البصرة الماضية؛ الجثث المتروكة في العراء، والسيناريوهات المحتملة إن تكررت المعركة. أنصتُّ بانتباه، فهؤلاء أصحاب الخبرة والتجربة، وهم من يوسّعون مداركي لفهم طبيعة القتال، وعمق الحروب وتراكماتها. شارك كلٌ منا وجهة نظره، وتخيلنا أن مصيرنا قد يكون كمصير أولئك القتلى المنسيين: أجساد بلا قبور، وجودٌ مطموس في ذاكرة الوطن، دون تقدير أو اهتمام من القيادات. تساءلنا عن مصير الإنسان الذي دُفع إلى الحرب دفاعًا عن وطنه، دون تكريمٍ يليق بتضحيته؛ مثل أولئك الذين تُركت جثثهم لتتآكلها الأيام في أرض المعركة، بلا وداع أو دفن.

تشظّى الحديث مع قساوة الصور: آليات محترقة، عظام مبعثرة على امتداد الساتر؛ مشاهد جسّدت ضراوة الحرب ووحشيتها. مع الخسائر الفادحة من الجانبين، تسرّبت الرهبة إلى النفوس، وتغلغلت القسوة حتى العظم. المكان بأسره بدا وكأنه يرفض النسيان... يرفض طمس من سقطوا فيه.

كنت الأقل خبرة في الجبهة، لكنني الأرفع تعليمًا؛ إذ كنت الوحيد بينهم من حملة الشهادة الجامعية. لذلك، فضّلت الإصغاء وطرح الأسئلة بدلًا من إبداء الرأي، رغبةً في فهم ما ينتظرنا من أيام وأهوال. شدّني حديث من خاضوا تلك المعركة الشرسة، ينقلون وقائعها وكأنهم يستعيدونها صوتًا وصورة؛ وجوههم ونبراتهم ترتسم فيها كوابيسها.

هدفي كان واضحًا: التقاط ملامح الصورة التي قد تنقذني لاحقًا من كوابيس المعارك المقبلة، ومن الفوضى والفظائع التي حصدت أرواح جنود أبرياء، جاءوا مرغمين لأداء خدمة إلزامية. أردت تجنّب التصورات الساذجة، وأن ترسّخ في ذهني صورٌ لا تخلو من الحزن والشفقة والأسى.

المقاتلون المتمرسون سردوا لي وقائع المعركة التي اخترقت فيها القوات الإيرانية الحدود حتى مدينة القرنة. كان واضحًا غياب الاستراتيجية، إذ اقتصر القتال على إدامة زخم إطلاق النار، حتى إذا نفدت الذخيرة، اضطر الجنود إلى الاشتباك بالسلاح الأبيض. وهكذا سقط القتلى والجرحى، تُركوا في أرض المعركة، في ما يعرف بـ"أرض الحرام"، لعجز رفاقهم عن إخلائهم وسط شراسة الاشتباك.

أما العلاقة بين وحدة الرصد وجنود المشاة، فصارت نمطًا روتينيًا، لكنّها كانت مبنية على ترابط وثيق. كان المشاة بطبعهم اجتماعيين، يعلمون أن المدافع هو سندهم الأوّل عند الثبات والمراوغة، فكانوا يترددون علينا بعفوية وتقدير، يلمحه المرء في عيونهم المنهكة وقلوبهم المتعبة. يزوروننا بلا موعد، بحثًا عن سعة الصدر، عن لحظة هروب من الواقع القاسي. حاملين معهم شايًا وصمونًا جلدا نمرّن به فكّينا، يجلسون، يحكون، يبتسمون، يتبادلون الآراء... أبناء الجنوب والشمال والوسط، وكلنا في النهاية متورطون في ذات المصير.

كـان ذلـك التقـارب مصـدر عـزاء، بـل ضـرورة نفسـية فـي جبهـة معزولـة ينتظرهـا المجهـول. هـذه الألفـة تنسـي المقاتـل وجعـه، وتُبعـده عـن العقـد التـي تفرزهـا الظـروف علينـا. غـدًا سـأحتاجهم كمـا يحتـاجونني، وهـذه اللقـاءات تمـد فـي عمرنـا، تـذكرنا بطيبتنـا، وتنسـينا وحشـة الـدنيا وأوامرها، وحزن الفراق، وتراكمات الوجع الذي نتقوقع فيه.

كنت واقفًا مع الجنود في المرصد، غير منتبهٍ لوضع رأسي الذي شغل فتحة المزغل المخصصة للرصد، والمبنية من آجر إسمنتي بعرض أربعين سم وطول ثمانين. مشغولًا بالإنصات، إذ بطرقة رصاصة قناص تطرق طبلة أذني، بعدما اصطدمت بمحيط الفتحة التي وضعت رأسي فيها. سقطت الرصاصة على بعد إصبعين أو ثلاثة فقط من فوهة المزغل. حينها ارتعبت، وانسحبت من المكان شاكرًا الله على نجاتي من غدرها. فلو لم تنحرف عن مسارها شعرة، لكنت الآن من الشهداء...

جفلتُ فجأة أمام الزملاء، انتابني ارتباك، وخفةٌ هزّت روحي من وقع المفاجأة. كيف كان سيكون مصيري لو لم تنحرف تلك الإطلاقة عن صرة الهدف؟ من الذي قادها بعيدًا عن رأسي؟ كيف لم أنتبه لوقوفي الخاطئ أمام فوهة الكوة، واضعًا نفسي في مرمى القنص، كأني العلامة الفارقة في عينه؟ كنتُ جنحتُ نحو الغاية التي رسمها القناص لذاته، نحو ما حلمت به بندقيته من قنص وفتك وتشفي؛ إلى مرادٍ يقتات من الحقد والغضب والتشهي.

كانت قد شغلتني الأحاديث العابرة، تلك التي ظننتها تسلية، فتسكعت روحي خلف حاجزٍ من وهم الأمن والأمان. كنتُ عند نقطة وسط بين الخطأ والفداحة، في عالم لا يسمح بالسهو. وفي تلك اللحظة، انسلتت مني حالة الشرود الذهني التي لا تغتفر في زمن الحرب... غفلةٌ جعلت العدو يتعقب ظلّها، ليتربص بالساهي لحظة سهوه؛ فالغفلة،

ومضـــةٌ خاطفـة تمـر، لكنهـا تخلّـد أثرهـا بحـادث جلـل، صـورة تقـدح فـي عـين المتلصـص، تـوقظ الانتبـاه، وتحـث العـدو علـى اسـتغلالها وكأنهـا نقطــة ضــعف واضــحة فــي عنــق الســاهي. الســهو... هــو العــدو الأول للمقاتـل الـرابض علـى خـط النـار. العـدو يسـبق اللحظـة، يتبعهـا، يتوقعهـا بـين الفرضـة والشـعيرة. مـن يخطـئ فـي الحـرب يرسـم مصيره بيـده، فـي لوحة القدر... وهنا المصيبة.

لكـن يـا تـرى، كيـف أخطـأت تلـك الإطلاقـة هـدفها؟ كيـف انحرفـت عـن رأسـي بمقـدار أصـبعين أو ثلاثـة؟ كأنهـا تقصـدتني بغـلّ مطلقهـا... كـأن القناص رصدنا ونحن منشغلون، فأراد أن يشد انتباهي.

لــم تكــن الإطلاقــة عبثيــة، بــل كانــت وحيــدة، محســوبة، دقيقــة. وحــين لامسـت جـدران المزغـل، تغيـر كـل شـيء. أدركنـا أننـا مرصـودون، فانحرفنـا جانبًـا بعيـدًا عـن الفوهـة، نعيـد ترتيـب وقفتنـا. كنـا أربعـة أو خمسـة، متحلقـين، فـإن دخلـت تلـك الإطلاقـة لفوهـة الكـوة لأردت اثنـين منـا علـى الأقـل لتقاربنـا. فإطلاقـة القنـاص لا تعـرف الرحمـة؛ مـدّاها بعيـد، وقوّتهـا قاتلـة. ولكـن... الله لطـف بنـا. كـان خلـف تلـك الرصاصـة شـيءٌ مجهـول، بارقـةٌ مـن رحمـةٍ ربانيـة، جعلتهـا تنحـرف بزاويـة جزئيـة عـن هدفها، لتمر بجوار رأسي دون أن تمسّني.

مـع كـل حـادث، أعـود لـذات اللحظـة، أحلـل، أتأمـل، أتـابع خطـوط القـدر. أتــذكّر الحلــم، الرؤيــا، وأســجد لربــي، أصــلي ركعتــين شــكرًا علــى الســلامة. ازداد يقينًــا بالرؤيــا، أزداد إدراكًــا، هوسًــا، حيــرةً، بســرّ دفنتــه فـي صـدري خشـية إفشـائه. أتمنـى فـي كـل فرصـة أن أمـنح نفسـي إجـازة لأزور الإمـــام العبـــاس وأخيـــه الحســين عليهمـــا الســـلام، هـــم الجـــذور، والعمق، والانتماء.

***

الحالة الثانية:.....

بعد أسابيع قليلة من تلك الحادثة، في أحدى عصريات الأيام الهادئة، كنا – أنا والمخابر سبتي وأحد جنود المشاة – نجلس على دكة حجرية داخل المرصد، تحت كوة المزغل المواجهة للجبهة الشرقية، والتي تعلو قامة الرأس تماماً. كنا نحتسي الشاي بينما يدور حديث جانبي عن النساء والحب والزواج، يتخلله شيء من الطرف والفضول، حيث كان سبتي وحده بيننا متزوج وله ثلاثة أطفال، ما جعله أشبه بناصح مجرب يمكننا أن نستقي منه خبرة العلاقة الزوجية وتربية الأبناء.

كان حديثه ممتلئاً بالعفوية، كان قد تزوج زواجا تقليديا من ابنة عمه، خالٍ من المقدمات العاطفية، فلم يذق لذة الحب إلا بعد أن رزق بولي العهد. تدفقت منه كلمات الشغف، فراح يسرد تجربته وكأنها رواية مساءٍ رتيب، أنستنا همومنا وحفّزت أرواحنا على التفكير بالزواج، كأننا نحلّق في خيال بعيد عن الواقع المر الذي أثقلنا وأرهق خطانا.

كنا نغوص في جمال الحديث حين باغتتنا ومضة حمراء اخترقت كوة المزغل. كنت الوحيد الذي انتبه لها، وبعد لحظات انهالت علينا جموع من الجنود، راجين اسعافنا على عجل، وعلى وجوههم أثر الصدمة والقلق.

سألتهم متفاجئاً:.....

- خير، ماذا هناك؟ مجرد طلقة مذنب دخلت من المزغل.

فرد أحدهم:.....

- أي طلقة؟ انها قذيفة مدفع ثقيل، ألم تسمع صوت الانفجار؟ أخرج لترى بنفسك......

ذهلت من جوابه، خرجت أتفقد الأمر، وإذا بي أُصدم بمشهد الدخان والعجاج الذي علا السماء وغطّى الأفق والمرصد. سألت رفاقي في ذهول:....

- هل سمعتم صوت الانفجار؟.....

بدوا مذهولين، مرتبكين، ما بين تأكيد ونفي. بدا واضحاً أنهم مثلي لم يسمعوا شيئاً. حيث انفعالهم لم يبدأ إلا بعد دخول الجنود علينا وكأنهم ريح عاتية قطعت خيوط اللحظة الحالمة التي كنا نعيشها.

وفي ممر الخندق، وجدت المشهد أكثر إثارة للذهول: قذيفة مدفع ثقيل انفجرت على بعد مترين أو ثلاثة منا، ولم نسمع لها صوتاً! كيف يمكن لانفجار بهذا القرب والقوة أن يكون بلا صوت بالكامل؟ لقد شممت رائحة البارود، دخان كثيف، غبار متناثر، وشظية اخترقت مزغل المرصد، ومع ذلك لم نسمع لها دوي داخل المرصد.

صار السؤال يطاردني كلغز لا جواب له: هل الصوت يختنق في الدائرة الوحدة التي تحيط مركز الانفجار؟ هل هناك "دائرة وحدة" تمتص الصوت بفعل ضغط العصف والشظايا؟ كأن الانفجار قذف الصوت خارج تلك الدائرة لينتشر بعيداً، أما داخلها فاختنقت بالصمت. لم يكن هناك صوت. لم يكن هناك اهتزاز. لم يكن هناك شيء.

كنت في المرصد، أقرب الجنود إلى نقطة انفجار القنبلة، لا يفصلني عنها سوى جدار بلوك هش، لا يقي من الريح، فكيف من العصف؟ لكنني لم أشعر بشيء. كأنني كنت في جيب الزمن، في نقطة لا يصلها الواقع، ولا يخترقها الإدراك.

اللحظة مرت، أو لم تمر. لا صفير، لا ضغط، لا ومضة. كأن الانفجار اختار أن يتجاهلني، أو أنني كنت غائبًا عنه، رغم حضوري الكامل.

عندها خطوت خارج المرصد، فرأيت العصف يلتهم الهواء، يبعثر التراب، يصرخ في كل اتجاه. حينها فقط، عرفت أن شيئًا قد حدث. أن العالم قد انفجر، دون أن يخبرني. كان الصمت أبلغ من الصوت، وكان الغياب أعمق من الحضور.

لا أملك تفسيراً يقينياً، لكن تلك اللحظة ستبقى ترفرف في ذاكرتي كأسطورة مدهشة بين الوهم والواقع.

دائرة الوحدة

بقيت في حيرة من أمري. إنها فعلاً قذيفة مدفع ثقيل، عرّفت عن نفسها بهالة من الغبرة والدخان المتصاعد فوق الساتر الترابي. لكن كيف بالله تنفجر قذيفة على مقربة مني، ولا أسمع لها هسيسًا، ولا دويًا، ولا صدى يخلخل الأجواء؟ لا خرخشة تتلاعب بخلايا المخ، لا شيء سوى الصمت. رأيت الشظية بأم عيني تدخل عبر كوة المزغل، في البداية، لم أصدق ما قالوه لي. لأني لم أسمع صوت الانفجار إطلاقًا، رغم كل الشواهد من حولي: رائحة البارود، الغبرة، الدخان، دخول الشظية عبر نافذة المرصد، شهادة جنود المشاة...

صرت أستفسر من المخابر وجندي المشاة، أبحث في وجوههم عن أثر لما أصابني. هل استشعروا ما استشعرت؟ هل مرّوا بما مررت به؟ هل أصيبوا بحالة الطرش والذهول ذاتها؟

"هل سمعتم صوت الانفجار؟" سألتهم، مرارًا، بلا جدوى.

ما يجعلني متأكدًا أنهم أيضًا لم يسمعوا شيئًا، هو أنهم لم يتحركوا عن مقاعدهم إلا بعد دخول جنود المشاة إلى المرصد. لم ينتفضوا إلا حين صاروا فوق رؤوسنا كحزمة. جاءوا مسعفين، دفعتهم الغيرة والمحبة، دخلوا دون استئذان، أكثر من عشرة جنود. هذا وحده دليل على أننا لم نسمع صوت الانفجار قط.

فيا ترى، كيف حصل ذلك؟ أين اختفى الصوت؟ ما الذي خنق القذيفة وجزل عنها صوتها؟ شيء ما تحوّل إلى إسفنجة ماصة، امتص ذلك الصوت المرعب، ذاك الخرْش الذي بجزعه يذهب العقل، ويمتد مداه لعدة كيلومترات.

كيف حصل ذلك؟ يبقى السؤال لغزًا يدور في مخيلتي، لا أعرف له جوابًا.

كأن الصوت يختنق في المسافات القصيرة، ويشرق فيما بعد ذلك. لشدة ضغط العصف في الأمتار القريبة من مركز التفجير، كأن الصوت يُقذف مع العصف خارج حدود دائرة الوحدة، تلك التي تحيط مركز الانفجار، مع الشظايا المتناثرة القاتلة.

لو أخذنا خيطًا من مركز سقوط القذيفة بطول مترين أو ثلاثة، ثم درنا به حول المركز، لصنع لنا دائرة الوحدة التي يختنق الصوت بداخلها. هكذا أفسر الحالة، والله أعلم.

في لحظة مشحونة بالسكينة الكاذبة، انشق الزمن على صوتٍ لم أسمعه. دخلت الشظية من الكوة، تبعتها خطوات جنود المشاة خلال ثوانٍ، كأن الحدث اختصر قوانين الفيزياء، واختصرني في ذهول لا تسعفه الحواس. الزمن تكلم عن الحادث أكثر من الصورة والمشهد الذي رأيته، وكأن كل شيء صار شاهدًا: الدخان، الغبار، الجدار، والسهو الذي أغمض بصيرتي ليستدعي وجوه النساء، تلك التي رسمها لنا سبتي في مختبر الرغبة. رأيت في خيالي علاقةً ساميةً لا تشبه الزنا، بل تماثل انصهار الأرواح لحظة التقاء الحب باللذة النقية.

كان ذلك الحدث لغزًا، لا أستطيع فكّه، ولا وصفه، ولا حتى الاقتراب من حيثياته. إنه ظلٌّ مبهم، عقدة معلّقة في فضاء ذهني، تُخيم عليه أسئلة بلا أجوبة: كيف تجاوزتُ مكاني وأنا ساكن؟ كيف عبرتُ خطّ

الـوهم دون أن أسـمع صـوت الانفجـار؟ هـل كانـت القذيفـة تـداعبني؟ أم تمازحني بقسوة؟ تفصلني عنها ذرات آجرٍ، جدارٌ بسيط... لكن عظيم.

ذلـك الجـدار... كـان أكثـر مـن مـادة صـمّاء، كـان حـزام أمـانٍ غيبـي. لا زلـت أشـكره، وأكـنّ لـه عرفانًـا، كأنـه اسـتعار مـن القـدرة السـماوية دورًا مؤقتًـا فـي حمايـة بشـرٍ مشـوش الفكـر. ومـع كـل هـذا، بقـي الحلـم، الرؤيـا التــي نقشـت فــي روحــي جـداريتها. عنـدها رأيـت الإمــام العبــاس عليــه السـلام، يسـمو بكلماتـه: "أنـت بحمـايتي فـلا تخـف، لكنـي أعتـب عليـك قلـة زياراتك لنا."

يـا لهـا مـن كلمـات... تلامـس حـدود الـروح، تفكّ ضـيق الـنفس، تنثـر الأمـن والسـلامة كـوميضٍ داخـل الظلمـة. إنهـا علاقـةٌ أزليـة بـدأت عنـد الـولادة، تجـذّرت فـي القلـب، وتحوّلـت إلـى يقـين روحـي، كـأن المطلـق وسـمني بهـا بواسع رحمته، عبر الإمام، العادل، الكريم، الحارس الأبدي.

12- قاطع الطيب

لا أنسى اللحظات الحرجة التي عايشناها حين وطأت أقدامنا جبهة قاطع الطيب، قادمين من قاطع الدير شرق مدينة القرنة. لاسناد فوج من أفواج اللواء الرابع عشر المرابط بين نهر الطيب والأراضي المنخفضة شمال هور الحويزة. كانت مهمة رعيلنا هو اسناد الفوج الأول، المنفتح على نهر الطيب، تحسبًا لهجوم متوقع من العدو عبر نهر الطيب، وفق تقديرات القيادة العسكرية حينذاك.

دخلنا القاطع يوم الأربعاء، المصادف 20 شباط من عام 1985. وصلنا موقعنا قبل الغروب بساعة، وكان الغسق قد بدأ ينثر رماده عبر الشرق. كنا نسير بهدوء السلحفاة، نتحسس الطريق بعناية، متجنبين أن نلفت انتباه العدو، فكل همسة في هذا المكان لها ثمنها.

امتد تحركنا قرابة ثلاث ساعات من العناء والصبر، من موقع مبيتنا قرب سيطرة الطيب حتى نقطة تمركزنا الجديدة. الطريق سبيس، مغبرة حد الاختناق، نثارها كدقيق الخبز تفلت من التربة بنسمة، بفعل سير سرف الدبابات والمدرعات والعجلات عليها جعلتها ناعمة جدا. أصابنا التعب والعطش، فصرنا نلوذ خلف قطرة ماء ترطب شِفاهنا، إذ لم يكن المخزون الذي معنا في المقطورة خلف أحدى الساحبات سوى مياه مجًّ من مياه شط العرب المتأثرة بمياه البحر والتي لا تروي العطش.

وما إن توقفت العجلات في دائرة الوحدة وسط الموضع المخصص لنا، حتى تساقطنا من عرباتنا نكف عنا الغبار الذي غمر أنوفنا وتداخل مع أنفاسنا وشعورنا، نفضنا عن أنفسنا رهق المسافة التي نكأت أجسادنا من كثرة الخض والهز عبر التواءات الطرق الوعرة.

كـان الهـدوء يسـود الجبهـة عنـد دخولنـا، لكنـه هـدوءً مرصّـعا بالحـذر، مشـوبا بـالتوجس. كـل شـيء بـدا علـى مـا يُـرام، إلا أن الملاجـئ التـي ورثناهـا عـن موقـع رعيـل هـواوين قـديم، مهجـورة، تغشـاها النباتـات الشـائكة والعشـبية، تقطنهـا الحشـرات والعناكـب والعقـارب وربمـا الثعـابين. لـم يتسـنَ لنـا تنظيفهـا قبـل أن نتهيـأ للمواجهـة بتهيئـة مـدافعنا، ولـم يكـن توقيـت دخولنـا الجبهـة موفقًـا، فـالغروب مشـوب بالحـذر حيـث التراشق المدفعي يزداد فيه، كما الليل يعسر العمل دون إنارة.

أخطـأ آمـر الوحـدة أربكتنـا، لقـد اسـتطلع الموقـع واكتفـى بالمشـاهدة دون الاعتبـار لعوامـل النظافـة والرصـد الليلـي وتعقيـدات الاسـتعداد القتـالي. كـادت تلـك اللحظـة أن تـودي بنـا جميعًـا، لـولا رحمـة حلّـت فـي المكـان مـع وطأتنا به...

كـان لزامـاً التشـاور مـع المعنيـين قبـل اتخـاذ قـرار الـدخول إلـى الجبهـة، ومواجهـة أسـوأ السـيناريوهات، حتـى تلـك التـي لا تخطـر فـي البـال. فالـدخول لا يقتصـر علـى تـأمين سـلامة القـادمين فحسـب، بـل يتعـداها إلـى حمايـة القـاطنين فـي المكـان. مـن وجهـة نظـري، كانـت الفتـرة التـي دخلنـا فيهـا الجبهـة فتـرة غيـر مناسـبة إطلاقـاً؛ فقـد بـدت قصـيرة جـداً مقارنـة بالفوضـى التـي كانـت تعـم الموقـع، لا سـيما فـي الملاجـئ التـي أغشـاها العبث والعث والزمن بالفوضى.

لـو دخلنـا فـي وقـت الظهيـرة، لتسـنّى لنـا جـز الأعشـاب وتطهيـر المكـان من رواسب الزمن المنصرم.

اسـتقر مقامنـا عنـد منعطـف إحـدى القمـم فـي القـاطع، فـي نهايـة القمـم المطلـة، كـان مرصـدنا يطـل علـى الـوادي بعـرض يقـارب الكيلـومتر، ويتقدّم عـن موقـع الرعيـل بـذات المسـافة. أمـا قـوات العـدو، فكانـت تبعـد عـن حجاباتنـا بنحـو 600 متـر، الأمـر الـذي أتـاح لنـا مراقبـة تحركـات آلياتهم ودروعهم على فترات متقطعة.

مـع حلـول الغسـق وانسـحاب الشـفق تلاشـت الفتنـة مـن الأجـواء، عـادت الطيـور إلـى أعشاشـها هربـا مـن العتمـة، عـمّ الليـل السـكون.. حينهـا رجّـت مسامعنا صوت قذيفة مدفع ثقيل مطلقة باتجاهنا.

كنـا منهمكـين فـي تثبيـت المـدافع، نتحـرك بسـرعة تنافسـية مـع الـزمن، متحـدّين الظـروف لبسـط وجودنـا. ومـع هـدوء الغـروب تلتصـق ذرات الأثيـر بسـطح الأرض، فتصـبح نـاقلاً جيـداً لصـخبنا ولضـجيج عجلاتنـا، لتصل إلى آذان العدو قبل أن تدركها آذان قيادتنا.

مـع انغمـاس الأفـق بوشـاح العتمـة، كنـا قـد شـددنا الأحزمـة، كـل يعمـل مـن جانبـه، المخـابر والقـداح والمعـين بوجـود الآمـر ومسـاعده كخليـة نحـل، بمـد الاسـلاك وتوجيـه المـدافع وتنظيـف الملاجـئ المهملـة وحسـب الأولويـات: المـدافع أولاً، ثـم الاتصـالات، ثـم إزالـة الفوضـى مـن الملاجئ.

كـل شـيء كـان هادئـا وعلـى مـا يرام...الكـل يـود أن ينهـي عملـه قبـل استسـلامه للرقـاد خوفـا مـن وقـوع المحظـور... الكـل يتأمـل يومـا جديـدا فـي حياتـه، مشـرقا، يئمـه السـلام. حيـث كانـت التهيئـة ضـرورية خوفـا مـن تعـرض القـاطع لهجـوم مباغـت حسـب الإشـاعة الـدائرة فـي الوسـط، إذا لابـد مـن عـزم مضـاعف لتأهيـل أنفسـنا ووضـعنا المهلهـل قبـل أن يقـع الفأس بالراس.

كانـت الحـرب قـد اختزلـت سـطور الحيـاة فـي سـطور الـوطن، تجـرأت علـى وداعتنـا واحلامنـا، شـتتنا، صـرنا نلـتمس عنـاوين الضـياع فـي أحـرف النـزاع، فـي صـرخة المـدفع وشـطط الشـظايا. أضـحى التيـه علامـة فارقـة فـي فكـر الشـباب، كـأنَّ صـحف الظـرف طويـت علـى سـر صـعب علينـا تفسـيره. القسـوة باتـت تلمـع فـي صـدفية الأيـام، زادت اشـعاعا مـع مـرور الـزمن وحـرارة الحـرب. بتنـا نشـعر بتغيـر طعـم المـاء والهـواء، جرفتنـا سـنين الحـرب لمهـاوٍ مجهولـة مـا كنـا نفكـر بهـا، كـل منـا

غـط بكـم هائـل مـن الاوجــاع والألـم، تراكبـت علينــا همــوم شخصــية ووطنيــة واجتماعيــة وعامــة ومســتقبلية شــتى، بــات كـل منــا يـدور فــي دوامة فلكه كقشة تجدلها دوامة العاصفة.

ونحــن فــي خضــم أعمالنــا منشــغلين بتــدبير أمورنــا، ســاحبات المــدافع (عجـلات الكـاز 66) سـطرت المـدافع قـرب مواضـعها، المـدافع مشـدودة بسـاحباتها. القـداحون يعملـون علـى قـدم وسـاق فـي تنظيـف وتهيئـة مواقـع مـدافعهم لتنصـيبها فـي الحفـر المخصصـة لهـا. الآمـر يتوسـط الرعيـل قـرب موقـع القيـادة يشـرف علـى عمـل الجميـع كملكـة النحـل. فـي تلـك اللحظــة طرقــت مســامعنا صــفير إطلاقــة عجفــاء تحــرث مســافة الأفــق متجهة نحونا..

وسـط الفوضــى وضــجيج الحركــة، باغتتنــا تلــك القذيفــة الطائشــة اخترقــت ســكون الأجــواء بصــخب انفجارهــا، بانفجارهــا بعثــرت مخططنــا وقلبــت المــوازين رأسًــا علــى عقــب، المــدافع لا تــزال مكبلــة بســاحباتها، العتــاد محشــو فــي صــناديقه علــى ظهــور العجــلات، عجلــة الإيفــا المحملــة بمــواد شديدة الانفجار تنتظر قرب موقع القيادة تفريغها.

فــي لحظــة مشــحونة بالصــخب والتــوتر، وبــين زحمــة المهــام وتــداخل النوايــا، سـقطت القذيفــة علــى مقربــة مـن سـور الرعيــل. أربكتنــا، جزلــت عنــا نشــاطنا. مـع سـقوطها انبطحنــا أرضًــا، كأنهــا جــاءت تلاحـق هـدير محركـات عجلاتنـا التـي لـم تهـدأ. سـقطت القذيفـة علـى بعـد أمتـار مـن سـور الرعيــل، لتقلــب ســكون اللحظــة إلــى فوضــى عارمــة، هــزت الأرض والنفـوس، وزعزعـت الثقـة، ومزقـت الطمأنينـة. عنـد سـقوطها، انفجـرت الرهبــة فــي الأعمــاق، وتفجــرت أصــداء الخــوف والصــمت، فتبــددت السـكينة، وتلاشـت مظـاهر الأمـان بفعـل الـذعر. ارتفعـت غبـرة الانفجـار، وتجاوزت حدود الخيال، فأصبحت النفوس تئن من وطأة الشقاء.

هيمنـة أزيـز الشـظايا المجنونـة علـى المكـان جـردت الجنـود مـن تهـاونهم، فانـدفعوا للبحـث عـن مـأوى. ارتطـام الشـظايا بـالأرض كأمطـارٍ لا تـرحم، لـم نملـك أمامـه سـوى الاحتمـاء بسـور الرعيـل، الـذي حجـز جـزءًا منهـا، وسوّرنا الله بالبقية.

إحـدى الشـظايا اخترقـت جـادر عجلـة الإيفـا، واسـتقرت فـي صـندوق مـن صــناديق العتــاد، فأشــعلت النــار فيــه بســرعة خاطفــة. تصــاعد الــدخان مصـاحبًا لهبـاب اللهـب، والنـار تنـدفع نحـو بقيـة الصـناديق كأنهـا وجـدت أخيرًا ما يلهب شوقها.

لحسـن الحـظ، أصـابت الشـظية زاويـة العجلـة، ولـم تبلـغ القلـب منهـا، وإلا لوقعـت الكارثـة. لكـن رغـم ذلـك، التهمـت النيـران سـتة صـناديق مـن أصـل خمسـين، تضـم كـلٌ منهـا قـذيفتين شـديدتي الانفجـار، تاركـة الجميـع فـي حالة ترقب ورجفة، بين النجاة والدمار.

كنـا غيـر مهيئـين لتلـك الضـربة المباغتـة. أجسـادنا مـا زالـت تحمـل غبـار الطريـق، وأهـدابنا ملطخـة بصـفرة الرحلـة، لـم نغسـل وجوهنـا بعـد، لا زالـت محركـات العجـلات تعمـل، بينمـا الجميـع منهمـك فـي تهيئـة المهـام اســتعدادًا للجاهزيــة القصــوى. كانــت القذيفــة قــد ســقطت بعــد وصــولنا بنصف ساعة فقط.

حينهـا كنـت منشـغلا فـي تهيئـة خريطـة الرمـي ونصـب نـاظم التوجيـه، بينمــا كــان المخــابر ســبتي يــؤمن الاتصــال مــع المرصــد ســلكيا ولاســلكيا بالجهـاز المحمـول علـى ظهـره، فيمـا كـان الآمـر يتفقـد عمـل القـداحين فارضا توجيهاته هنا وهناك.

كنـا نـدرك جيـدا إذا مـا وقعـت القارعـة سـنكون فـي وسـط المعمعـة، حيـث لا يمكـن تجنـب قعقعـة السـيوف ونحـن فـي وسـط الميـدان. أن لـم نسـعى خلــف الكارثــة هــي التــي ستســعى خلفنــا، ســتلاحقنا حتــى تقحمنــا فــي

حيثياتهـا، سـتجعلنا جـزء مـن قصصـها والفوضـى.. سـتكون الحالـة التـي نـود أن نتجنبهـا سـتكون واقـع حـال لابـد منهـا، سـتكون عارمـة، شـاملة، فوضـوية، تتجـاوز الحـد الـذي نقـف عليـه، ففـي واقـع الحـال نحـن منغمسـون فـي صـلب الموضـوع، فـي الجبهـة المتقدمـة، لـذا سـنكون مـن ضمن خيارات الفوضى بشكل من الأشكال.

الشـظية لسـعت جـدران الصـناديق الخارجيـة بتشـوه جلـدي خـارجي دون أن تصـل شـررها لأكيـاس البـارود داخـل الصـناديق، لـذا اشـتعلت النـار بأخشـاب الصـناديق بسـرعة الـزمن. كانـت عجلـة الإيفـا معبئـة عـن بكـرة أبيهـا بعتـاد المهـداد شـديد الانفجـار.. كانـت جاثمـة فـي وسـط الرعيـل قـرب موقـع القيـادة، تنتظـر دورهـا فـي تفريـغ محتوهـا.. البقعـة التـي وطئنـا بهـا هيّ اهداف مشخصة للعدو، تتعرض للقصف بين آونة وأخرى...

مـا أن التعـت النـار بجـادر الإيفـا؛ حتـى التمعـت حكمـة آمـر الرعيـل المـلازم الأول عـدنان باللحظـة، حيـث وجـد مـن المجازفـة حـلا لتلافـي الخطـر المنبعـث، والسـيطرة علـى النـار وعلـى طبيعـة المشـكلة التـي تفجـرت بأحضـاننا علـى حـين غفلـة، وذلـك قبـل أن تفلـت زمـام الامـور مـن قبضـة أيادينـا ونصـبح فـي عـداد خبـر كـان. حينهـا لـن نجـد لنـا مـلاذا تحـت مطـارق مدفعيـة العـدو وغضـب أكـداس العتـاد إذا مـا تفجـرت هـي الأخرى.....

فـي تلـك اللحظـة اسـتدعى قسـم القـداحين وقسـمهم لمجمـوعتين، قسـم مـنهم أنشـغل بتفريـغ العجلـة مـن صـناديق العتـاد المعطوبـة ومحاولـة إخمـاد نيرانهـا قبـل أن تصـل للبـارود، وقسـم آخـر أنشـغل وجـاد فـي محاولـة السيطرة على النار المبرمة في غطاء قمارة العجلة الكتاني...

كانـت النـار قـد توسـعت لتلـتهم أجـزاء مـن ثنايـا الخارجيـة لصـناديق الخشـب، كـذلك التهمـت ثلـث مسـاحة الرقعـة الخارجيـة العليـا مـن الجـادر... كنـا علـى وشـك أن نتلقـف الكارثـة أو تتلقفنـا بانفلاتهـا، لـولا

سرعة بداهة الآمر في أتخاذ قراره بحنكة. حيث أوشك الخطر أن يولد من رحم الأمان، من العتاد الذي ندافع به عن أنفسنا. حيث مع ولادة القدر يموت السعي تماما، تتقيد السواعد، يتجمد الفكر، نبقى ننشغل في البحث عن مأوى للخلاص من الكارثة، أو نزج في مجازفة قد لا ننتشل ذواتنا من الخطر.

لكن الله لطف بنا فأوعز إلى الآمر بفطنة حل العقدة، فنزلت رحمته على لسانه، فألهمه الشجاعة والحكمة باتخاذ القرار بالوقت المناسب، فلو ونيَ في قراره لحظة واحدة لفلتت زمام الامور من ايادينا. ذلك حين أوهم الجنود بأن العتاد المحمول في العجلة من نوع الدخان وليس المهداد شديد الانفجار. جعلنا نشترك معا في سباق الجري لعبور حاجز الزمن، النار تحاول من جانبها تود كتم أنفاسنا وتسبقنا خط العبور، ونحن نحاول من جانبنا نود لجم فاهها وخناقها في مكانها.. كلانا أبتدأ المحاولة من ذات الخط، كل حاول اختراق حاجز الصمت بالقدر الممكن، وبشراسة تعادل شراسة النار في معاكستها لنا، كنا لها الند بالند والخصم بالخصم، كنا أشد ضراوة منها في لجم سعييها وانينها.

لقد حاولت جاهدة في ابتلاع العجلة وموقع الرعيل بغفلة، باتت تدفع بنا نحو الهوة والصخب ونحن ندفع بها جاهدين لوهدة الخلاء والأمان، محاولين إسكاتها وتجريدها من خبثها وعبثها. صرنا نلجم فاهها ونسكت صوتها الذي صار يرتفع عاليا مع الدخان واللهب المتصاعد في قوس الغسق، ندفع بها نحو وهدة الصمت والسكوت كي لا يفطن عليها العدو، وهي تدفع بنا نحو وهدة الجبن والارتياب واد أخطار العدو بمصيبتنا....

هكذا كان الشد والمهادنة بين قوانا، اشبه بلعبة جر الحبل؛ حتى تمكنا من جرها وحجرها وإخماد جائحة خطرها، تمكنا من ردعها قبل أن

تلفظ سخطها في بواكير جحورنا، حينها وهدت واستكانت، ثم خمدت وتراخت أمام عزم وبأس جنودنا.

كادت الكارثة تقع لولا سرعة أنجاز عملنا، كادت تكيل بجمعنا وتقل أرواحنا مع دخانها لعنان السماء، كادت تقيدنا في مراكبها لعالم الخيال المليء بالعقد ضمن وإدة السكون الأخيرة. لمّحَت لنا بذلك من خلال نفوق دخانها وهيجان لهبها. التمسنا غلها من خلال شعث الشواظ الذي أكل أجزاء كبيرة من غطاء القمارة. مضى سخطها يعبث في صناديق العتاد الخشبية بسرعة مثيرة، مشعرة العدو بوجودنا من خلال النار والدخان المتصاعد الذي استفحل صوره في النواظير الليلية.

الكارثة كادت أن تقع لولا ندى الرحمة التي رطبت ثغر الآمر بالحكمة، ما شجع في زرع الغيرة والإيثار في نفوس جنوده، فانتبرت الهمم، رافضة سطوة النار المجحفة، فكانوا في الموعد مجازفين بأرواحهم.

اشتد الصراع مع تصاعد خطر النار على العتاد، فتحرك الجنود بشجاعة مذهلة. رغم أن الحكمة تدعو أحيانًا للتريث؛ إلا أن المجازفة كانت السبيل الوحيد لكبح الكارثة، فهبوا كفريق نمل يعمل في تناغم. نداء الآمر كان حاسمًا: "هيا يا أبطال، لا تخافوا، إنها قنابل دخان!" فاندفعوا بإيمان، رغم أن الحقيقة أن العتاد كان شديد الانفجار. كتم الآمر الحقيقة ليشعل فيهم الروح القتالية، ووقف في قلب الخطر، فكان رمزا للشجاعة في لحظات الحرجة. خلال دقائق، تمت السيطرة على النار، وأُبعدت العجلة المشتعلة عن مركز الرعيل. ثم تم إخماد نار الجادر في موقع دبابة مهجورة. لكن العدو لم يتأخر، إذ أمطر الموقع بأكثر من ثلاثين قذيفة، والرحمة الإلهية أنقذت الجميع، فسقطت جميعها خارج السور الترابي الذي كان حصننا المنيع.

تحت بند القصف، تبدد السكون، لاحقنا الرعب بشراسة. قنابل الإنارة جعلت الليل يبدو ككرنفال فرح، بينما كنا نتشبث بأرواحنا في زوايا النجاة. خبرتنا ساعدتنا في استشعار القذائف وتفاديها، لكن كثافتها أربكت حواسنا. كانت لحظات الموت تحوم فوق رؤوسنا، تهز النفس من الأعماق. كل انفجار كان له طعنته في الروح، وكل رعشة كانت تأكيدًا على هشاشة الأمان. ومع اتساع دائرة الرعب، لم يبقَ إلا التمسك بالروح وذكر الله، نناجيه أن يسلمنا من قدرٍ ينتظرنا خلف دخان الحرب.

بعد أسبوع من تلك الواقعة، تحركت وحدتنا إلى موقع جديد خلف المحن.

*****

بعد انتقالنا إلى موقعنا الجديد، تبعتنا مصيبة عظيمة كادت أن تفتك بنا لولا لطف الله. وبينما كنّا نجهّز موقع القيادة برفقة زميلي علي، أُغرقنا بوابل من قذائف العدو التي أمطرتنا بأربعة عشرة قذيفة ثقيلة خلال زمن قياسي لم يتجاوز عشر دقائق. جميعها سقطت داخل محيط الرعيل، وهو عبارة عن دائرة قطع ناقصة بقطر خمسين مترًا.

اتضح أن الموقع كان مرصودًا بدقة ومحددًا تربيعيًّا من قبل العدو. إحدى القذائف انفجرت على بعد متر واحد فقط من باب الملجأ الذي كنّا نتحصّن فيه، بينما سقطت أخرى على بعد أربعة أمتار بعد تجاوزها للملجأ. وكانت الملاجئ متقاربة بحيث تشكل موقع القيادة وملاجئ القداحين مقطعًا دائريًا بزاوية 120 درجة، يقع موقع القيادة في مركزه.

كان يومًا قمطريرًا خلّع عنّا الإحساس بالحياة رغم أننا خرجنا منه بسلامة لا تُفسّر إلا برحمة ربّانية. حينها شعرنا وكأن النهاية قد

أزفـت، ولا زال صـوت الطنـين الحـاد لتلـك القنابـل يخـرش الـذاكرة، كـأزيز قرشـي يقـرع طبلـة الأذن بأصـوات انكسـارات متتاليـة ترتجـف لهـا الأبدان. نجونا بأعجوبة... وبلُطفٍ لا يُقاس.

لكـن، مـن دَبّـر تلـك الوقـائع حتـى نجونـا؟ ألا تكمـن خلـف هـذه الحادثـة أمـور غامضـة لا نـدرك كنههـا؟ كنـتُ أستشـعر حضـور الرحمـة فـي كـل لحظـة وكـل مكـان، وكأنهـا اللغـز الـذي يرافقنـي وأحـاول أن أفـك شـفرته. هـي نعمـة، بـل نغمـة عميقـة أبحـث عـن تفسـيرها وسـط فصـول الروايـة، وتشدّني دومًا للعودة إلى ذلك الواقع الذي أنقذني من مواقف لا تُنسى.

13- الاجازة

في قاطع الطيب بعد أن استلمت استحقاق إجازتي الدورية، نقلتني عجلة القصعة إلى نقطة وسطية خلف قطعاتنا وعلى بعد كيلومتر من مقر الفيلق الرابع، والذي يبعد بحدود عشرة كيلومتر عن الخطوط الامامية للجبهة، كان عليَّ أن أقطع تلك المسافة راجلا حتى موقع خلفيات الفيق لأتمكن من هناك أن أرتقي أية عجلة تنقلني لمرأب مدينة العمارة.

علما قاطع الطيب أرض متموجة، تتخللها هضاب، تلول، منحنيات ومنخفضات، وديان سحيقة، أرض شبه صحراوية، شبه ميتة...الخ، تستمر هذه الاختلافات في القاطع لمسافة عشرة كيلومترات أو تزيد؛ حتى تدك نهايتها حدود الشارع العام الرابط بين بغداد والبصرة وعلى بعد كيلو متر واحد منه.. تتدرج المرتفعات وتزداد وعورة كلما مضينا باتجاه الشرق؛ حتى تشتد العُقد في نقطة تلاقي الحدود الفاصلة بين العراق وإيران، عندها تختنق الطرق والمسافات بالقطوع الصخرية وسحيق الوديان بحيث المنطقة تصبح كمتاهة لشدة التواءات مجرى الوديان، التي تخترقها بتحد واضح في مواجهة صلفة لصخب الطبيعة الهوجاء، في العقدة تشتد الوعورة بقطوع عالية ووديان سحيقة والتواءات ونتوءات وخشوم صخرية مهيبة يصعب القتال بها...

هذه حقيقة قاطع الطيب الذي يختلف كليا عن قاطع الدير – الزريجي الذي مكثت فيه مدة تقارب تسعة أشهر كما اسلفت. حيث تحولت من قاطع صحراوي أجرد، بمستوى سطح البحر؛ لقاطع ينتعش بالطبيعة، بشجيرات الطرفة وأنواع من الأعشاب الصحراوي والأشواك البرية، لأرض تجسد لوحة مخنوقة بألوان التضاريس وطبيعة التربة، حيث تشتبك الوديان والجبال والتلول والمنحنيات والصحاري مع انواع الأعشاب البرية وشجيرات الأَثل عديمة الأوراق أو الطرفاء المفصلية

التـي تمتلـئ بهـا القمـم والوديـان. المهـم بعـد أن أوصـلتني عجلـة القصـعة لنقطـة يتفـرع منهـا فـرع يتجـه لخلفيـات موقـع الفيلـق الرابـع، والـذي منـه نرتقي العجلات الذاهبة لمدينة العمارة.

نزلـت فـي تلـك العقـدة واتجهـت منحـدرا باتجـاه مقـر الفيلـق، حـاملا حقيبـة الظهـر التـي فيهـا مجمـل اشـيائي وملابسـي المتسـخة وطقـم الحلاقـة وفرشـة اسـنان ودفتـر ملاحظـات كنـت اسـجل عليـه ملاحظـاتي التـي اشـاهدها والخـواطر التـي تتحفنـي ومقتطفـات شـعرية وقصصـية بسـيطة عن ما اشاهد في الجبهة وفي موقع العمل...

المهـم بـت اسـير مـع الشـارع المزفـت علـى رواق متـأملا أن أدرك مـرأب مدينـة العمـارة قبـل الغـروب، حيـث مـع اقتـراب المسـاء تقـل العجـلات الناقلة إلى بغداد لقلة المسافرين.

مـا أن ابتعـدت عـن العقـدة مسـافة 200 متـر تقريبـا؛ حتـى جفلـت بصـوت إطلاقـة طلقـت مـن مـدفع إيرانـي، هجسـت بـه تقصـدني، كـأنَّ الصـوت غـازل فكـري فغـز احساسـي بلسـعة الانتبـاه، اربـك هواجسـي بإشـارة تحـذير، القذيفـة حاكـت مشـاعري، جعلتنـي انشـغل بتقـدير مكـان سـقوطها وحجـم وقعهـا وبعـدها عنـي، بـدأت الحسـابات تتسـارع وتـورق حالـة جدليـة النقـاش مـع الأنـا الداخليـة، بـل أنهـا ألمَعَـتْ صـدفية الاحسـاس بصـحة التقـدير؛ حتـى غـدت الامـور فـي داخـل الـنفس تغلـي، لترتقـي إلـى درجـة التأهـب والعلاقـة الغنيـة الوثيقـة بـين الأنـا والاحسـاس، بحيـث فسـرت مستشـعرات الـذات درجـة الخطـورة المتوقعـة، فعرفـتُ نـوع القذيفـة وموقـع سـقوطها المتوقـع.. عنـدها توقفـت فـي مكـاني لاتخـاذ القـرار العاجـل قبـل أن تبـتلعن القذيفـة بشـظاياها وصـوت انفجارهـا. بـت اتبـع صـوت صـفيرها، مـع كـل لحظـة أهجـس بالقـدر يقتـرب منـي، كـان الصـوت اسـرع مـن القذيفـة بأمتـار فقـط، وكلمـا يشـتد الصـفير ازداد يقينـا

وحـذرا مـن نواياهـا. الخبـرة التـي اسـتقيناها مـن فداحـة الحـرب جعلتنـي أرتقي سلم المعرفة وأجنب ذاتي المخاطر..

صـارت الحالـة جـزء مـن يوميـات حياتنـا، غـدت اكثـر سلاسـة وروتينيـة المـذهب، بحيـث وصـلت بنـا حالـة نفسـر قـراءة المشـهد قبـل الوقـوع، وصـلت بنـا المعرفـة لدرجـة التشـبع والالهـام، بحيـث مـن لتعـة ولكنـة صـوت الإطلاقـة نميز نـوع الاطلاقـة ونعـرف اتجاههـا وموقـع سـقوطها، بتنـا نميـز بـين نـوع القذيفـة إن كانـت مـن نـوع المهـداد أو الانفـلاق أو الـدخان، أن كانـت تخـص مـدافع الهـاون أو المـدافع الثقيلـة ذات المـديات البعيدة.

قبـل أطـلاق القذيفـة كانـت أمـوري النفسـية عاديـة وخاصـة أنـي عائـد بشـغف للبيـت فـي إجـازة دوريـة أمـدها اسـبوع. سـائرا مـع الشـارع المزفـت متـذكرا الوالـدين والأخـوة والأصـدقاء والحبيبـة، كـان علـي أن أقطـع تلـك المسـافة المتبقيـة راجـلا حتـى مقـر الفيلـق. متـأملا أن تصـادفني عجلـة تنقلنـي فـي طريقهـا لغايـة سيطرة الفيلـق، تنتشـلني مـن تلـك البقعـة الخطرة المقطوعة، تلك التي تقع تحت مديات المدفعية البعيدة المدى..

وأنـا أمشـي مـع الشـارع راكبـا مركـب الخيـال الـذي أمررنـي بمنعطفـات الـذكريات والحنـين للأحبـة، سـمعت صـوت اطـلاق القذيفـة التـي استوقفتني فـي مكـاني، والتـي توافقـت مـع اتجـاهي واختلفـت مـع غـايتي، وكأنهـا ودت أن لا أفـارق خطـوط الجبهـة إلا أن تـودعني بخيفـة تزرعهـا فـي قلبـي كـي لا أعـود، أوجفـت مشـاعري بعـد أن اتفقـت معـي بالاتجـاه والظن..

استوقفتني فـي تلـك النقطـة لأقـرأ جيدا المشـهد القـادم. صـرت أنصـت إلـى صـفير الإطلاقـة الـذي بـات يحـاكي مشـاعري بشـدته وبارتفـاع النغمـة مـع مرور الزمن...

هـيَّ كانـت إطلاقـة واحـدة لا غيـر، لكنهـا كانـت شرسـة، شـعرت بهـا جـاءت تنـتقم منـي. لـذا تجمـد الـدم فـي أطرافـي، ارتعشـت أوصـالي، خمنـت سـخطها واتجاههـا، تعلـق الـذهن بذبـذبات الصـفير المحتـد، القـادم، والـذي صـار يحـذرني علـى اتخـاذ القـرار بعجالـة قبـل فـوات الأوان، لتجنب خبثها وغدرها..

لقـد خمنـت مـن لحظـة سـماعي إطـلاق القذيفـة اتجاههـا، وعرفـت مـن ذبـذبات الصـوت مكـان سـقوطها، أدركـت بأنهـا لا تبتعـد عنـي ابـدا، ستسقط فـي محـيط دائرتـي، قريبـة عنـي، فـي ذات الـدائرة التـي أقـف فـي وسـطها، هكـذا اصـبحت الخبـرة الميدانيـة تلهمنـي بقـراءة المشـهد علـى اتمـه قبـل وقوعـه. كـان لصـوت الإطلاقـة وجـل وجلـل أنبـأتني بـه تجـارب الحـرب والخبـرة المتراكمـة، هجسـت صـوتها أطرقـتْ الأذن الداخليـة لتوصـل نـذيرها عبـر المستشـعرات للقلـب والعقـل، والتـي بـدورها بعثـت اشـارة مـورس عبـر عصـب الاحسـاس إلـى المـخ لأتخـذ القـرار العاجـل. كنت قد حددت موضع سقوط القذيفة ضمن دائرة قطرها 50 متر.

ذلـك الصـفير مضـى يبحـر فـي سـكون الأجـواء كطـائر العنقـاء، نـاثر الرعـب فـي أوصـالي، لتـرتبط شـبكة اليقـين بخطـوط الظـن. فـي الوقـت الـذي تبعـثُ الصـفير المـوحش علـى مضـض وهـو يثقـل علـي أمـر كيـاني، مـع كـل لحظـة يـزداد غـيلا وغليانـا وصـخبا فـي داخلـي، الـوجس حاضـر، يحثنـي علـى أخـذ التـدابير قبـل فـوات الأوان، زاد علـيَّ الوحشـة والخـوف مـن إن أقتـل فـي تلـك البقعـة النائيـة الصـحراوية دون أن أجـد مـن يسـعفني أو يهـتم بـأمري. بقعـة مقطوعـة عـن البشـر والمشـيدات التـي ممكـن أن أحتمي بها.

مـع تفـاقم صـفيرها وهـدر الثـواني بـت ادعـو الله أن يقينـي شـرها، أسـهبت كثيـرا فـي تركيـزي علـى الصـوت مـع القـرار المتخـذ، رميـت الحقيبـة التـي كنـت أحملهـا علـى حافـة الشـارع وأذنـيَّ تـرطن لصـفيرها المـوحش وهـو

يـزدري الـنفس فـي المسـافات المتبقيـة بجفـاء، مـع انحسـار الثـواني بـين المطرقــة والســندان زدت يقينــا بمكــان ســقوطها وغــل ســخطها. ذلــك الصفير أضـحى كخيط صـيد السـمك بينـي وبينهـا، حـدد لـي مسار القذيفـة كخـط مسـتقيم باتجـاهي التـي جعلتنـي قبلـة لهـا. بتركيـزي واصـغائي الـدقيق كنـت أحـاول أن ألقـف موضـع سـقوطها... علمـا المسـافة الزمنيـة بـين الصـوت والقذيفـة ثانيـة أو ثـانيتين لا أكثـر، فهـي تنطلـق مـن فوهـة المـدفع بمسـار مقـوس، بينمـا الصـوت يقطـع المسـافة بخـط مسـتقيم، وأنـا أركض خلف ذلك الأزيز بحثا عن كوة أمان تظلني..

لقد تركـت ذاتـي تتسـلق رنـيم الصـوت، تتـوجس غلـه، جعلـت مـن صـوان أذنــيَّ كصــوان أذن الغــزال، حتــى أدركــت موجــات الأثيــر المحملــة بــالنقم والغضـب ليفسـر العقـل شـجونها قبـل سـقوطها، لأتخـذ علـى ضـوء ذلـك قراري المناسب.

قبـل أن تلامـس الأرض وتنتشـر غلهـا فـي المحـيط بثانيـة فقـط؛ رميـت نفســي فــي الســاقية المحاذيــة لجــادة الطريــق، هــذه الســاقية بعمــق شــبر وعـرض شـبرين حفرتهـا سـيول الامطـار، انقـذتني الفطنـة، تمـددت فـي وسـطها واضـعا راحـة يـدي علـى قفـا رأسـي محتميـا بأصـابع يـديَّ. حيـث كنت ذاهبا في إجازتي الدورية، لذا لم أكن أرتدي خوذة الرأس...

ومـا أن انبطحـت فـي السـاقية علـى بطنـي؛ حتـى انفجـرت القذيفـة علـى بعد 40 متــر قبــل أن تــدرك موضــع الســاقية، بحيــث كــان موضــعي ونقطــة سـقوط القذيفـة والمـدفع المطلـق علـى خطـا مسـتقيم واحـد، بـؤرة الـدائرة موضع سقوط القذيفة..

مـع انفجارهـا وصـوتها القـرش الـذي خلخـل خلايـا المـخ والجسـد؛ كنـت اسـمع صـوت ارتطامهـا بـالأرض وهـي تربـت كربـت المطـر تـك تـك بشــكل عشــوائي قــرب رأســي وفــي محيطــي، الرهبــة أوجفــت القلــب، اغاضـتني، الرعشـة ملكـت الاطـراف وانـا منبطـح علـى بطنـي فـي السـاقية

كمـن يُجلـد بالسـوط، مـا أن هـدأ الوضـع بـت اتـنفس الصـعداء، الرجفـة صـارت تنسـحب مـن رجلـي بهـدوء وانـا أتـذكر غـزارة الشـظايا التـي سقطت حولي وتجاوزتني دون أصاب برحمة من الباري عزَّوجل

معروف بـأن الشـظايا تتـوزع علـى محـيط دائـرة موضـع الانفجـار، بحيـث 50% منهـا ترتكـز فـي زاويـة وسـطية قـدرها 60 درجـة باتجـاه الأمـام، فيمـا 40% تنقسـم إلـى جـانبي الزاويـة الوسـطية مـن اليمـين واليسـار، فيمـا 10% منهـا الشـظايا ترتـد للخلـف بتجـاه نصـف الـدائرة الثانيـة، لـذا كانـت نسـبة الخطـورة التـي تعرضـت لهـا والمحيطـة بـي هـيَّ 100% مـن الشـظايا إذا مـا علمنـا بـأن الشـظايا القاتلـة تصـل بمـداها لــ 200 متـر والتي ترتد إلى الخلف، تصل لمدى 50 متر.

بعـد أن تطمأنــت، حمـدت الله علــى سـلامتي، ثـم حملـت حقيبتــي علــى ظهـري واسـتمريت فـي مشـواري راجـلا نحـو خلفيـات الفيلـق وأنـا شـاكر الله علــى ســلامتي والفطنــة التــي أودعهــا فــي ذاتــي، **متـذكرا الرؤيـا العجيبـة وارتبـاطي الجـوهري بالأمـام العبـاس عليـه افضـل الصـلاة والسـلام. لـن انسـى كلامـه لـي؛ لا تخـف، انـت بحمـايتي، لـن يصـيبك مكروه، لكني اعتب عليك قلة زيارتك لنا...**

يا ترى؛....

من الذي جنبني خبثها وخطورتها؟

كنـت علـى يقـين لـو رفعـت يـدي فـي الفضــاء لبتـرت، مـع أن حقيبتـي كانـت مرميـة علـى الشـارع، إلا أنهـا لـم تصـب قـط، كانـت موضـوعة بمسـتوى رأسـي قياسـا لاتجـاه موضـع سـقوط القذيفـة. ألـيس فـي كـل تلـك الملاحـم حكمـة ورسـالة ودٍ وَدَّ الله إيصـالها لـي أو عبـري بصـيغة الرؤيـا؟ يقينـا لـو أهملـت ذاتـي قيـد شـعرة فـي ذلـك الموضـع، لكانـت سـجلت أثرهـا وحكايتها بدقة على جسدي. لرسمت عليه مآثر لن تتبدد.

14- كيد العقارب

ذات يوم كنت أتنزه وأبني في حديقة حيوانات مدينة العين، حينها سألني سؤالا عابرا حين دخلنا في صالة الزواحف والعقارب والثعابين، حيث قال:..

- بابا؛ هل لك معلومات عن العقارب وسمها قرأت معلومة في الانترنت تقول بأن لتر سم العقرب بمليون دولار، كما الخبر يقول بأن لدغة العقرب لا تقتل أنما تؤذي فقط، هل هذا صحيح؟
- والله يا بني أصحاب الشأن والاختصاص هم أدرى بذلك، أقصد فرق الطب والصيدلة. لآنهم من خلال تحليل محلول السم يمكنهم معرفة قوة تأثيره على خلايا الأعصاب والمخ... لكني لي علاقة وطيدة بالعقارب أعتبرها علاقة صداقة، لقد جمعتني الصدفة بها في مواضع شتى، سأشرحها لك لتكون لك فكرة عنها.

1- برنامج شايف خير

حين كنت فتيا بأول العمر بسن الحادي عشرة عام 1969 - 1970؛ لم نكن نملك في بيتنا تلفازا حال معظم الناس، حيث كان جديد العهد في انتاجه وبرامجه، ولغلاء ثمنه قياسا لمرتبات الناس والفقر السائد حينذاك.

كان التلفاز يعرض برنامج شايف خير من على الشاشة في الساعة التاسعة مساء من كل يوم خميس. وهو برنامج اجتماعي ترفيهي يقدمه الفنان المبدع فخري الزبيدي، صاحب النكتة والطرفة والمشاكسة، يكافئ المشاركين على صحة أجوبتهم بقطع من الادوات المنزلية التي ايضا كانت جديدة العهد والصناعة حينذاك من ثلاجات

ومبـردات وغســالات ومـراوح وهواتــف وتلفزيونــات واجهـزة الراديـو ومبـردات ....الـخ، كـأن يحصـل المتسـابق علـى جهـاز كهربـائي للبيـت على قدر أجابته.. وهكذا دواليك ...

تلـك الأجهـزة كانـت حديثـة الإنتـاج حيـث فتـرة السـبعينات تعتبـر بدايـة الثـورة التقنيـة والتكنلوجيـة فـي العـالم، لـذلك كـان البرنـامج لـه اقبـالا كبيـرا كون 95% من البيوتات تفتقر لتلك الأجهزة المنزلية....

كنـت أتـابع البرنـامج مـن خـارج مقهـى منشـد القريبـة عـن دارنـا، لأصـداء البرنــامج التــي فاقـت التوقـع وحجـم الاقبـال عليـه وخفـة دم المقـدم فخـري الزبيـدي الله يرحمـه. وأنــا أتــابع البرنــامج بشـغف وعـن بعـد كـون غيـر مسـموح للأطفــال دخـول المقــاهي أدبيــا وأخلاقيــا. منــتعلا نعــلا مــن الاسـفنج ذات سـيرينَ. مـع بـدأ بـث البرنـامج الكـل كـان منشـغلا بتتبـع حيثيـات البرنـامج، الكـل صـاغٍ بإسـهاب مفـرط لمـا يـدور فـي البرنـامج وما يدور في خلد المقدم من طرائف في ليالي أيلول المنعشة.

كنـت مـع الجمـع اتبـع البرنـامج بلهفـة مفرطـة مـن خـارج المقهـى، نتيجـة الزحمـة المكتظـة فـي المقهـى ولصـغر سـني وقصـر قـامتي كنـت أعـاني مـن مشـاهدة الشاشـة الصـغيرة والتـي كانـت تبعـد عنـي قرابـة ثلاثـين متـرا. كنــت أقـف خلـف آخـر كنبـة، أصـف مـع الـواقفين، مسـتندا علــى ظهـر الأريكــة المطروحــة أمــامي، واقفــا علــى رؤوس اصــابع قــدمي لأتمكـن من تجاوز رؤوس القاعدين والواقفين أمامي...

فـي لحظـة انشـغال الجميـع، فـي ذروة مفاجـآت البرنـامج صـرخت بـأعلى صوتـي:...

- آخ...

كــأني صــعقت بصــعقة كهربائيــة فــي أصــبع قــدمي الكبيــر الأيمــن، مــع صــرختي صـعق الجميـع مـن حـولي، اللسـعة شـلت قـدمي، مـع الصـعقة

زاغت عيني إلى المشهد لتستطلع الموقف الغريب الذي أصابني، وإذ بي اشاهد عقربة سوداء متوسطة الحجم تزحف بين أرجل الأرائك تحاول الانزواء داخل المقهى. حينها صرخت:...

- عقربة سوداء لدغتني دخلت المقهى. عقربة..

مع اللسعة هجست بالنار أضرمت في كامل ساقي من الأصبع حتى الورك، من شدة الألم صرت أصرخ وأبكي. مع صرختي أنتبه عليَّ الجمع تاركين البرنامج، حتى صار الكل يبحث عن العقربة تجنبا لخبثها، لكنها اختفت عن الأنظار؛ الكل قلق من شأن تواجدها. في تلك اللحظة شاع الألم يمتد سريعا متسلقا الساق والفخذ حتى الورك... لم أعد احتمل الضغط على الساق، بت لا أحس فيها، كأنها شُلّتْ، رجعت للبيت اسحل برجلي حتى وصلت البيت..

المسافة بين البيت والمقهى 100متر صارت امامي 100كم على ما كنت عليه، الدموع تنهمر من المقل كصنابير مفتوحة تجري في حافر الخدين. قطعت تلك المسافة بشق الأنفس، مع خلو الطريق من البشر، الكل كان منشغلا بمتابعة البرنامج.

في داخلي كنت أنوح دون صراخ، كأنَّ الأنفاس ضبحت وتلاشت، أضحت لا تحتمل جلد المسافة المتبقية وصولا للبيت، الالم أنتشر بسرعة البرق في الساق، الروح عاجزة على تحمل سقم الألم والشدة التي خاصمتني، صرت أزحف زحف السلحفاة بين الآه والأنين حتى ادركت محراب البيت...لم أصل إلا وأنا منهك القوى، دلقت الباب الذي كان مفلوجا بدرجة 30 درجة تقريبا، ثم دفعت بجسدي للداخل ككيس دقيق هويت إلى الأرض، أسترعى أنتباه والدتي وأخي الأكبر محمود اللذان كانا يجلسان في صدر الحوش، تحت الطارمة، حينها كان أخي في طور المراهقة، يحد ويلمع خنجرا صغيرا في يده، كان لايزال لم يبلغ بعد.

غصة هاجت قلب الوالدة، خوفا عليَّ من المكروه الذي تعرضت له، وأنا أسحل بالقدم والدموع تترقرق في المقل، حينها سألتني:..

- خيرا؟ ما بك يا ابني؟
- لسعتني عقربة في أصبع قدمي الأكبر، وأنا واقف خارج مقهى منشد أتابع برنامج شايف خير، عقربة سوداء لمحتها تهرب لداخل المقهى...
- حينها قال لي أخي:..
لا تخف، أرني موضع اللسعة....

من شدة الألم المراق في الساق، لم أشعر بأصبع القدم، ولكن مكان غرزة إبرتها كانت واضحة، نقطة محمرة... حينها بخنجره حزَّ منطقة اللسعة على شكل علامة زائد، ثم صار يضغط على أصبع القدم حتى نزف وأخرج السم الممزوج بالدم..

لم أشعر بحدة الخنجر لشدة الخدر، ما أن خرج قيح السم الأصفر مع الدم المراق؛ حتى شعرت بالراحة تدب في الساق رويدا رويدا، كأنه بعمله سحب الألم كله من الورك حتى أصبع القدم مع الدم المراق. عاد إحساسي تدريجيا بالقدم، أنحصر الألم في الجرح الجديد المفتعل، بعمله كأنه سكب دلو من ماء مثلج على نار الالم. حينها سألني بماذا تشعر:..

- شكرا لك، أنتهى كل شيء.

2-زيارة آمر اللواء

مع شروق الشمس ولسعة برد الصباح، دوّى صوت صافرة الإنذار في أذني، أطلقها ضابط الصف ضاحي؛ ذلك الإنسان المرح الطيب، ابن الناصرية، المميز ببشرته البيضاء، طوله الفارع، ونحافته الواضحة، وشعره الكث الأشقر المائل للبياض.

كنت حينها غارقاً في نعاسٍ لذيذ، متكوّماً تحت بطانية مقلمة بألوان الأخضر والبني والأبيض، فوق فرشة بالية مشبعة بالغبار. تخامرني أحلام نجوى تمادت مع نسمات الفجر، أترنح بين اليقظة والوسن، مسافراً بخيالي نحو عناق الحبيبة، متّبعاً نبض الرغبة المتكورة في جوارحي، قبل أن يوقظني هدير الصافرة، فأنفض غبار الحلم عن جفني.

صافرة الإنذار هزت جذع مشاعري، وأطلقت أسراب الحب من على شجرة اللقاء. أسقطت أوراق الحلم المصفرة، ومحت كحل الوسن عن الجفون. أنبأتني بتغير مفاجئ في الظروف يستدعي المواجهة والتهيئة، فالنتائج المرتقبة غير محمودة، والخطر محتمل في كل وقت، والحرب سجال مليء بالمفاجآت.

لم يبقَ من الحلم إلا خيط دخان رقيق تلاشى في سديم الوسن. نزعتني الصافرة من جذور النوم كما يُنتزع المسمار من لوحه، أقلقتني، شتّتت عصافير الظن من رأسي. دبّت الريبة في داخلي، وتسابقت الشكوك مع التوقعات، فبدأت أتمتم لنفسي:...

– يا رب خير... ماذا حدث هذا الصباح؟ الأجواء هادئة، لا إطلاق نار ولا سقوط قذائف...

نهضت لأغسل وجهي من غبار الكرى، وإذ بضاحي يطل واقفاً فوق رأسي، يحثني بسرعة وحزم:...

- هيا يا عباس، جهز نفسك حالاً، آمر اللواء سيصل خلال ساعة!
- حاضر سيدي، خمس دقائق وأكون جاهزًا.

وكان ذلك عند السادسة صباحاً من أحد أيام شهر تشرين الأول سنة 1984، في قاطع الطيب.

حينها كنت أحد منتسبا لرعيل الهواوين الثقيلة.. يبجل ذراعي الأيمن خيطان سوداوان من الكتان، دلالة على رتبة نائب عريف معين أو رقيب كما يسمى في بلدان أخرى، وهو صنف فني. كان في كل رعيل ينتسب ضابطان، أحدهما يتجه للمرصد والآخر يستقر في موقع القيادة. في ذلك اليوم كان الآمر مجازا، لذا أصبحت بفعل الظرف مسؤولا فنيا عن موقع قيادة الرعيل، فيما كان النائب الضابط ضاحي مسؤولا إداريا عن الوحدة.

أي عليَّ تحمل مسؤولية تنظيم السجلات وخرائط توجيه المدافع والإعداد للجاهزية وإعطاء أوامر الرمي إذا عند اللزوم.. فيما كان على النائب الضباط تنظيم سجلات الغياب والخفارة والمؤن وتهيئة العجلات وتسجيل الطلبات والنواقص وتنفيذ أوامر الحركة، واستقبال الضيوف، وأمور أخرى عديدة.

كنا نقطن في أرض صحراوية جرداء، قاحلة، مستوية، أرض يكتنفها الرمال البيضاء والصفراء الدقيقة جدا كدقيق البر، تستطير مع الريح ضاربة وجوهنا وعابثة بملاجئنا. أرض خالية من نغمة الحياة، خالية حتى من الأشواك البرية، لا يعيش فيها سوى رفيق الدرب الجربوع، الذي يقاسمنا أرزاقنا. أضحت مسألة تطاوله على مؤننا روتينية، يسرقها سرا وعلانية، لم يعد يترك لنا كيسا إلا قرضه بأسنانه الحادة، الناعمة، تلك التي تشبه مسامير الأحذية، حتى قرضت بطاطيننا.

الغرابة تكتنف في تقلب الطقس، رياح لا تستكين نهارا أبدا، كأنها حالة قدرية مسيرة لواجب ما، تبدأ بعزف عزيفها مع الساعة التاسعة ليشتد ذروة العصف عند الظهيرة مع ارتفاع قرص الشمس، ثم تهدأ العاصفة رويدا رويدا بعد الثالثة عصرا حتى تخمد وتعود لهدوئها وسكينتها بعد الخامسة مساء، وكأنها تشتد مع حرارة الشمس. هكذا ديدنها في كل يوم خلال فترة الخريف بين الساعة التاسعة صباحا والثالثة مساءً... فيما يمضي الليل بسكون غريب، تتلألأ نجومه ببريق تزيده سِحْرا وعذوبة وسهادا.

على كل انتفضت من فرشتي والكدر مطبق على جفوني، ارتديت جواربا، ثم لبست البسطار على عجالة من أمري. كنت قد أعددته مسبقا بحيث يسهل ارتداء الحذاء وخلعه طلبا للظرف، ما أن أضع قدمي في كم الحذاء أو قمقمه حتى يأخذ مكانه بالسهولة المعتادة. وقد تعودت أن أضرب كعب القدم بالأرض ليأخذ الكاحل محله، ثم أرفع سُحاب الحذاء (الزنجير)، ليطبق فم الحذاء على رسغ القدم.

حين ارتديت الحذاء؛ شعرت بكتلة صلبة تحت كاحل القدم الأيمن، أشبه بكتلة تراب مركونة تحته، ولعجزي ولكسلي من جهة ولاستعجالي بتهيئة نفسي وموقع القيادة قبل أن يحل آمر اللواء؛ فلم أعر أهمية لتلك الكتلة، لأنها لم تكن عائقا لحركة القدم.

غسلت وجهي ويدي ومن ثم فطرت على عجالة بشريحة جبنة معلبة، كانت قد تعرضت للسلب والقرصنة من قبل رفيقنا الجربوع، فهو شريك دائم لنا في الزاد والسكن - وكما يقول المتنبي: رب عدو ما من صداقته بد ..... استعنت بقطعة خبز لم يبقى فيها من رمق سوى رجاء أخير قبل أن تتصلب أو تتعفن، وذلك بعد أن نفضت كيسها المشبع بالغبرة جراء عصف يوم أمس.

كنا قد تعودنا أن نعلق أكياس الأغذية بمسامير في سقف الملجأ تجنبا لتجاوزات اصدقائنا الجرابيع عليها، ومع ذلك لا نسلم من أذيتها، نحمد الله أنها ليست من آكلات لحوم البشر لكانت قرضتنا.

بعد أن فطرت فضلت أن أشرب كأس الشاي في موقع القيادة الكائن في مركز الرعيل، لأكمل واجبات تهيئة سجلات الزيارة المرتقبة، على الرغم من أن كل شيء كان جاهزا في حينه؛ إلا أن الغبرة غطت على بروقها وبهجتها، إضافة للاطمئنان على جاهزيتها..

(قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) صدق الله العظيم.. كان أمرا ضروريا لتجنب أية سلبية ممكن أن تسجل ضد رعيلنا.

أتممت المعاينة والملاحظة على سجلات الرمي وإعداد الخرائط والترتيب داخل غرفة القيادة، شرعت بتنظيفها من ركم الغبرة، ثم اتجهت لتوجيه المدافع حيث أعِدتُ توجيهها مرة أخرى على حسب أهدافٍ مختارةٍ، موزعة على قاطع الجبهة، بذلك كنت قد أنهيت عملي قبل أن تقارب الساعة السابعة صباحا.

من جانبه النائب الضابط ضاحي كان قد أتم عمله كما يجب إلى جانب مجموعة القداحين، بحيث لم تعد هناك بقعة في ثنيات ثيابنا إلا دعكناها بالغيرة والنضوج والافتنان.

تم تهيئة السجلات والمدافع، وترتيب المرافق وتهيئة العجلات على أحسن حال، لم يتوانى أحد ولم يتقاعس أحد منا، الكل عمل بإخلاص منقطع النظير كخلية النحل، القداحين والمخابرة والسواقين وأنا والنائب الضابط، لم نشعر قط بغياب آمر الرعيل. أنصب همنا ومشاعرنا على أن لا تسجل على رعيلنا نقطة سوداء....

إحساسنا بالمسؤولية والوطنية دفعنا نتسلق سلم الألق، شعرنا به كالنطاق الذي يحزم خواصرنا، زادنا بأسا وصلابة، نقلتنا لحالة التميز والكمال.

كان الضمير هو المشرف والراصد على عمل المقاتل، كراع الشياه، على أن لا نكون أقل شأنا وعزما من الرعائل الأخرى التابعة لبطاريتنا، على ضوء المنافسة، حيث البطارية تحتوي على ثلاث رعائل.

تأخر موكب آمر اللواء كثيرا، جعل الملل يتسلل لدواخلنا، فللانتظار نصاب ينكسر إذا ما زاد عن حده. كنا نود أن نفتك من تلك الزيارة لثقل أمرها، كونها لم تأتي إلا للمراقبة والمحاسبة والتفتيش... ربما لن ينالنا منها سوى التوبيخ الذي يقلل من شأننا أو شكر لا يزيدنا شيئا، فهم في عملهم دائما ما يحاولون اشعار المقابل بالنقص اتجاههم! كي نبقى نتوجس ظلهم ونحسب ألف حساب لزياراتهم. لنعمل بشكل أرقى وأفضل مما وصلنا إليه؛ إضافة إلى أن المجتهد يضع نفسه تحت أنظار العيون، بحيث ترمي القيادة ثقلها عليه في أنجاز معظم مهامها، ولو كانت في جوف المستحيل. ولن يكافئ المجتهد إلا بكثرة الواجبات الإضافية والمحاسبة.. ذا ما استنتجته من سياق تجارب الحياة العسكرية التي مررت بها..

كانت الساعة تمشي مشي السلحفاة، لقد تجاوزت عقاربها الواحدة ظهرا ولم يبزغ هلال الآمر في سماء رعيلنا، وكأنه تاه أو غار في خضم زيارات أخرى بعيدة عن موقعنا..

ربما العاصفة غيرت مجراه، فهي غير معنية بزيارته، حيث بدأت تصب جام غضبها على رؤوسنا، رياح هزيمة جمعت شتاتها لتصب جام غضبها وعزيفها في الأجواء. أضحت الرمال تتحرك تحت أقدامنا كسيل المياه الجارفة، نشعر بها تلسع أقدامنا بدبابيس رمالها،

تضـرب وجوهنـا بعنـف حركـة الـريح. الغبـرة قـد ارتقـت سـلم الأفـق مـع تقدم الزمن..

بعـد الواحـدة والربـع ظهـرا؛ كـان قـد دب اليـأس فـي ربوعنـا بعـد أن مـر موكبـه مـن جانـب الرعيـل متجهـا إلـى وحـدات المشـاة، هـذا يعنـي بأنـه لـن يـزور وحـدتنا، ربمـا منعتـه العاصـفة، ربمـا جلجلـت هواجسـه أزمـة مـا فـي الجبهـة الأماميـة. لـذا مـر كسـحلية تسـحل ذيلهـا وسـط اهتيـاج الـريح نحو خطوط التماس..

وبعـد أن تخطـى حـاجز رعيلنـا، أبلغنـا النائـب الضـابط ضـاحي بـأن وضـع التهيئـة سـيبقى علـى مـا هـو عليـه حتـى يأتينـا أمـرا مـن القيـادة. وقـد يعطـف علينا خلال عودته الميمونة لمقر اللواء.

لكـن ذلـك مـن المسـتحيل، فلـن يعـود بـنفس طريـق ذهابـه، لقـد علمنـا فـي إيابـه كـان قـد سـلك مجـازا آخـرا، عنـدها تأكـد لنـا إلغـاء زيارتـه لوحـدتنا.. السـاعة قاربـت الثانيـة ظهـرا، تهيئنـا لاسـتقبال عجلـة القصـعة القادمـة لوحدتنا، وهي عجلة زيل روسية الصنع.

زحفنـا نحوهـا كـدبيب النمـل كـل منـا أخـذ نصـيبه مـن الأرزاق. كانـت قصـعتنا مكونـة مـن رز مشـرّب بمـرق البطاطـا وبرتقالـة وقـرص مـن الخبـز. وقبـل أن نصـل بهـا الملاجـئ تبهـرت برشـقة مـن الغبـرة الناعمـة، كما عصبت أجفاننا الشبه مغمضة بكحل من ذراتها.

بعـد أن انتهـت قصـة الآمـر؛ دلـف كـل منـا لملجئـه، ليتحلـل ويتغـدى ويصـلي ويأخـذ قسـطا مـن الراحـة، قبـل أن يعـاود مسـاء لعملـه الـذي بـدأه صباحا بتنظيف ما استخلفته الغبرة وتهيئة ما خربه الاعصار..

خـلال جلوسـي وانـا أخلـع فـردة البسـطار؛ لاحظـت كعـب الجـوارب كأنـه مبلـل عنـد موضـع الكاحـل، دفعنـي الفضـول لأرى مـا فـي كعـب الحـذاء مـن أمـر، الـذي كنـت أعتقدتـه حفنـة تـراب، بنفضـي الحـذاء سـقطت منـه

كتلـة مهروسـة سـوداء تبينـت لنـا أنهـا عقربـة سـوداء كبيـرة الحجـم، كانـت قد تخفت في الحذاء جراء لسعة برد الصبح.

والظـاهر حـين ارتـديت البسـطار كنـت قـد عالجتهـا بـدك الكاحـل بـالأرض بسـرعة ارتـدائي الحـذاء، بـذلك دعسـت عليهـا، عقصـتها، قضـيت عليهـا قبـل أن ترتـد لهـا أنفاسـها. قبـل أن تهيـئ ذاتهـا لمهـاجمتي، بسـرعة ارتـدائي الحـذاء جردتهـا مـن نواياهـا الخبيثـة تمامـا، مـع تضـييق مجـالات حركتها.

حينهـا كـان حاضـرا الموقـف كـل مـن المخـابر سـبتي والنائـب الضـابط ضـاحي اللـذان دخـلا معـي الملجـأ. حمـدوا الله علـى سـلامتي، العمليـة كانـت صـدمة لـي ولهـم.... تلـك العقربـة كانـت متهيئـة لمهـاجمتي لـولا لطـف الله الـذي أوعـز بخبـر قـدوم آمـر اللـواء والـذي بـدوره أعطـاني دافعـا قويـا لأسـرع فـي صـب جـام غضـبي عليهـا دون أن قصـد، ولكـن كانـت إرادة الله حاضرة بالفعل في درء خطرها.

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...) صدق الله العظيم.

بعـد أن شـاهدها الجميـع؛ صـاروا يتبركـون بـي ويـدعونني بالسـيد علـى سـجيتهم- حيـث إرادة الله قوضـت إرادة العقـرب، فـرد كيـدها.. حينهـا حمـدت الله علـى لطفـه واسـتغفرته كثيـرا، فأنـه الـرؤوف الـرحيم بعبـاده (قـل لـن يصـيبنا إلا مـا كتـب الله لنـا، هـو مولانـا، وعلـى الله فليتوكـل المؤمنون (51)) صدق الله العظيم.

حينهـا تـذكرت الرؤيـا الجليـة التـي باتـت تكـون جـزءا مـن تفكيـري أغسـل بهـا شـرودي وازيـد بهـا يقينـي بعـالم الغيـب والحكـم المطلـق. تأكـدت بـأني محمي من قبل المجهول متمثلة بالأمام العباس عليه السلام.

3- كأس الشاي

في ليلة حالكة السواد، حين انسحب القمر إلى سباته، واختبأت النجوم خلف ستارٍ غائمٍ، جلستُ على سفح الرابية قرب مرصدنا، في قاطع الطيب شرق العمارة، في تمام الساعة الحادية عشرة. كانت الجبهة ساكنة، والجوّ معتدلًا، والخوف يتسلل بصمتٍ عبر أزيز الرصاصات المبعثرة من سلاح البي كي سي العدو، والتي تربك الجبهة بالطلق المقوس، يحذر المتسكعين من مغبة الترجل خارج ملاجئهم.

هناك، تحت وطأة الظلمة وسكون الليل، غاص فكري في صور الأهل والمصير الكئيب، وانهمرت في ذهني أفكارٌ لا تعرف الهدوء، أشبه بشلالٍ ينهل من بحرٍ من الخيال. لم يُكتب للبال راحةٌ في الجبهة، ولم يُمهلني السكون لألتقط أنفاسي. كنتُ أنتظر رفيقي سبتي، الذي عهدتُ به أن يجلب لي كأس شاي ليؤنس وحدة الليل.

وفجأة، وسط ذلك الهدوء الثقيل، سمعتُ صوت دحرجة حجرة قرب قدمي اليمنى دون أن أتحرك. كان الصوت بمثابة إنذارٍ باطنيٍ، جذبني بيقظةٍ خفية. أمسكتُ بمصباحٍ صغير، ووجهته نحو مصدر الصوت، فإذا بعقربٍة سوداء ضخمة تتقدم نحوي، لا يفصلها عني سوى شبرٍ واحد! كانت قد حرّكت تلك الحجرة في طريقها.

في تلك اللحظة، حمدت الله على الفطنة التي وهبني إياها، وعلى رحمته التي أحاطتني بها. دعست عليها ببسطاري العسكري، مدركًا أن لسعتها كانت كفيلةً بإدخالي في دوامةٍ من عذابٍ لا علاج له في تلك البقعة المنقطعة. لا سيارة إسعاف، لا دواء، ولا وسيلة لنقلي إلى المشفى التي تبعد أكثر من ثلاثين كيلومترًا. كانت ليلةً ثقيلة، تزداد ظلامًا لو مستني تلك العقربة.

مـا إن علـم سـبتي بـالأمر، حتـى قبـل رأسـي وقـال: "الآن أُؤمـن بأنـك سـيدٌ لمـا فيـك مـن كرامـةٍ وصـدق"، فقـد تكـررت الحالـة أمامـه، وأيقـن أن فـي الأمر سرًّا.

منــذ ذلــك الحــين، صـــار الســؤال يــؤرقني: مــا تلــك الظــاهرة المتكــررة للعقـارب السـود؟ أتكـون هـذه إشـارة؟ وهـل رؤيـاي متصـلة بهـذا الحـدث؟ شـعورٌ غـامرٌ بـأنني محـاطٌ بعنايـةٍ إلهيـة، محمـيٌ بألطـاف المطلـق، وقـد يكـون سـيدي المبجـل الإمـام العبـاس بـن الإمـام علـي، عليهمـا السـلام، هـو الوسيط الرحماني لهذا الحمى الإلهي.

﴿ قُـلْ لَـن يُصِـيبَنَا إِلَّا مَـا كَتَـبَ اللَّهُ لَنَـا هُـوَ مَوْلَانَـا ۚ وَعَلَـى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّـلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

14- أحمد رسول

في آذار من عام 1986، وبعد خمسة أشهر من انتدابي للتدريس في 1985/11/5، وقعت حادثة وفاة المرحوم أحمد رسول شبيب، نسيبي وزوج كريمتي. كنت شاهدًا على تفاصيلها، بل جزءًا من مشهدها، لا سيما أن علاقتي به كانت وثيقة، امتدت لقرابة شهرين ونصف من الرفقة اليومية بعد الانتداب.

كان أحمد يعمل نائب ضابط في المشفى العسكري بمعسكر جلولاء، وقد مُنح في عيد الجيش بتاريخ 1986/1/6 مكرمة من الرئيس صدام حسين: عجلة فولكس واكن برازيلية الصنع، شأنه شأن باقي العسكريين المتطوعين أثناء الحرب. ومنذ تلك اللحظة، أصبح كثير التنقل، يزور الأهل والأصدقاء، ويجوب مناطق ديالى وخانقين والسعدية، يجمع بين صلة الرحم وتعلم قيادة العجلة.

كان محبوبًا، مرحًا، لبقًا، وسيمًا، لا يغيب عن عزاء أو فرح، ولا يتأخر عن مساعدة أحد. تعلق بي وتعلقت به، حتى أصبحت كظله، أرافقه في كل جولاته، إلا الأخيرة.

في مساء يوم الأربعاء 1986/3/26، زرت داره دون موعد. وجدته نائمًا على كنبة في صالة البيت، الساعة تشير إلى الرابعة مساءً. كان غارقًا في قيلولة، يصدر عنه شخير خفيف، مرتديًا بيجامة مقلمة بخطوط بنية. وفجأة، انتفض من نومه مرعوبًا، شاحب الوجه، شارد النظرات، يرتجف. سألته بقلق:....

- سلامات، بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، قل أعوذ برب الفلق..

رد وهو يتوشح بالوجل:...

- أنا سأموت!

ثـم روى لــي رؤيــاه: زاره والــده وشـقيقته خولــة (المتوفيــان)، أمسـكاه مـن يديه، وأخذاه إلى السماء. قال لي:....

- إن جــزت الأيــام الثلاثـــة بســلام، فهـــي أضـــغاث أحـــلام، وإن لـــم تكن، فهو قدر مكتوب.

كان مؤمنًا، والده من أهل التقية، والإيمان بالقدر مغروس فيه.

فــي صــباح الســبت 1986/3/29، جــاءني ليــودعني قبــل ذهابــه إلــى بغــداد برفقة نسيبه أسعد. قال:...

- لا أود أن ترافقنـــا، فـــالأمر يخـــص أســـعد، وقـــد لا يرغـــب بإشاعته.

كانــت تلــك المــرة الوحيــدة التــي لــم أرافقــه، رغــم أننــي كنــت معــه فــي كــل مشــاويره الســابقة. هــل كــان يــتكلم بلســانه؟ أم أن هنــاك مــن تكلــم بلســانه ليمنعني من مرافقته؟

في الساعة الحادية عشرة، وصلتنا مكالمة من المشفى العسكري:...

- أحمـد رسـول تعـرض لحـادث خطيـر قـرب سـيطرة بغـداد، وهـو راقد في المشفى، فيما توفي أسعد في الحال.

ذهبــت مـــع شـــقيقتي وأولاده إلـــى بغـــداد. وجـــدناه مصـــابًا بكـــدمات فـــي صـــدره وظهـــره وســـاقه وجبهتـــه، لكنـــه بـــدا بصـــحة جيـــدة. ودعنـــاه فـــي السادســـة مســـاءً بـــأمر حـــرس المشـــفى، وفـــي صـــباح الأحـــد 1986/3/30، سلّم أمره لله نتيجة نزف داخلي في صدره.

تفاصيل الحادث

وقــع الحــادث قبــل ســيطرة بغــداد – ديــالى بكيلــومتر واحــد. عجلــة كوســتر خارجـــة مـــن بغـــداد، انحرفـــت بشـــكل غيـــر منطقـــي، عبـــرت الجـــزرة

الوسطية بعرض 20 مترًا، واتجهت نحو مسار دخول العجلات إلى بغداد، لتصطدم بعجلة أحمد.

كيف لم ينتبه السائق وهو يعبر الجزرة الوسطية؟ كيف لم يتوقف؟ هل كان مريضًا؟ مخمورًا؟ أم أن هناك من قاد العجلة بدلاً منه؟ ولماذا لم يتمكن أحمد من تفادي الاصطدام رغم رؤيته للعجلة القادمة؟

من الذي دفعه للذهاب رغم قلق رؤياه؟

من الذي أنطقه برغبة عدم مرافقتي؟

هل كانت الرؤيا نبوءة؟ أم قدرًا محتومًا؟

هل نجاتي كانت بتدبير إلهي؟ وهل رؤياي للإمام العباس عليه السلام كانت لها دخل بحماية غيبية؟

"لا تخف، أنت بحمايتي، لن يصيبك مكروه... لكني أعتب عليك قلة زياراتك لنا.

الحادثة ليست مجرد تصادم مروري، بل لغز روحي، يتقاطع فيه الحلم مع الواقع، والإيمان مع التساؤل، والقدر مع الإرادة. كل شيء حدث كما لو أنه مكتوب في لوح محفوظ، وكل خطوة كانت مرسومة بدقة من المطلق.

هل الإنسان مسير أم مخير؟ هل الرؤى إشارات؟ أم مجرد انعكاسات نفسية؟ لا أجوبة قاطعة، لكن الحكاية تظل شاهدًا على أن هناك ما هو أعمق من المنطق، وأقوى من الصدفة..

أليست تلك الرؤى إشارات من المطلق إلى العبد؟ أليست مصائرنا تُكتَب في اللوح المحفوظ؟ قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا﴾ (التوبة: 51) و﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ (النساء: 78)

15- اليمن والامارات

- خلال هجرتي لليمن

عندما ضاقت السبل في العراق بعد دخوله الكويت واشتداد الحصار الاقتصادي، تركت مهنة التدريس وتوجهت صوب اليمن في عام 1992. وصلت مدينة صنعاء ظهر يوم الثاني من أيلول، وفي جيبي لم يكن سوى خمسين دولارًا. نزلت في فندق إسطنبول وسط المدينة، في ميدان التحرير، وأحسست بحاجة ملحة لاستكشاف المدينة في مساء اليوم نفسه، قبل غروب الشمس بساعة. أردت التعرف على الناس، الأسواق، وطبيعة الحياة.

خلال سيري في شوارع منطقة التحرير، لفت نظري مقهى صغير في زاوية الشارع، تجمع فيه عدد قليل من العراقيين. شعرت برغبة في الجلوس معهم والتعرف على أحوالهم، وعن فرص العمل كمدرس، وأسعار المعيشة، وكل ما يمكن أن يساعدني على فهم الواقع الجديد. بدأت أتحادث مع بعضهم لأجمع ما أستطيع من معلومات، وكي أكون صداقات تعينني مستقبلًا.

في تلك اللحظة، اقترب مني أحد المدرسين مستفسرا:.....

- انت من أين؟
- من محافظة ديالى من جلولاء.. عندما أخبرته بأني من ديالى، تغيرت نبرة صوته وارتسمت علامات الحماسة عليه.
- ما اختصاصك؟
- الرياضيات
- ما أسمك ؟
- عباس...

- انا اسمي خالد مدرس اللغة الانجليزية. من قرية بروانة في المقدادية – محافظة ديالى. ابتسم وقال لي وكأنه يفتح بابًا جديدًا في حياتي: -
أصغي إليّ يا أستاذ عباس؛ غدًا صباحًا تذهب إلى مدرسة عثمان بن عفان في منطقة الحصبة. مديرها صديقي محمد كابع. قل له أنا من طرف الأستاذ خالد أرسلني اليك، فهو يحتاج إلى مدرس رياضيات.

أخبرته أنني لا أعرف شيئًا عن صنعاء ولا أين تقع الحصبة لقد وصلت اليوم، فرد بلطف: "من هنا تركب الدباب – باص صغير لعشرة ركاب. اطلب من السائق أن ينزلك قرب المدرسة. اليمنيون طيبون جدًا، يحبون العراقيين، وستجد من يساعدك بسهولة."

- شكراً لك يا طيب، فضلك لن أنساه، فقد أغنيتني بطيبتك التي لا توصف.
- لا تهتم وأن كنت بحاجة لأي شيء أنا في خدمتك، لا تنسى غدا في التاسعة صباحا اذهب للمدرسة.

هكذا جرى الحديث بيننا بالضبط، حينها ترك في قلبي طمأنينة، جعلني اتفاءل في مجيئي لليمن وخاصة نحن هربنا من واقع حرب وحصار جائر، بل أنه فتح لي باب للمستقبل الذي ضاق علينا في وطننا العراق..

في اليوم التالي ذهبت لمدرسة عثمان بن عفان؛ استقبلني المدير وقال لي:....

- من يوم غد واضب بالدوام في المدرسة وانا سأعمل لك عقد عمل مع مديرية التربية، قد تطول المدة بعض الشيء ولكن لا تيأس فالعقد مضمون 100%.

حينها شكرته واستمريت معه في المدرسة لغاية حصولي على عقد العمل بعد أربعة أشهر من العمل المجاني. كنا اربعة مدرسين نعمل في المدرسة، بينما في مديرية التربية تقدم للعمل 400 مدرس في كافة الاختصاصات، وكانت القائمة تعلق على باب التربية وتتغير في كل اسبوع بحيث تحذف منها بعض الاسماء، كانت اسمائنا نحن الاربعة في صدر القائمة؛ حتى تم اختيار 120 مدرسا فقط من مجموع الاسماء المتقدمة لمدينة صنعاء.

السؤال الذي يطرح نفسه؛ من الذي أرسل الاستاذ خالد في تلك الساعة لينفرد بي من بين الجمع ويرشدني إلى الذهاب لمدرسة عثمان بن عفان؟... من الذي ارشده ليلتقي بي في مساء ذلك اليوم؟ كان في المقهى يتواجد أكثر من عشرين مدرسا قبل أن أدرك المقهى... من الذي دفعه لرفع عني تلك الحيرة التي نقلتها معي من العراق وأنا أول مرة أخرج خارج حدود الوطن؟ الحيرة التي كنت عليها في أول دخولي اليمن كانت كبيرة، والمبلغ الذي بمعيتي محدود، لا أعرف أين اذهب وكيف اتصرف.. كيف وصلت المقهى التي لا علم لي بها؟ ولا اعرف شيئا عن شوارع مدينة صنعاء؟.

بصراحة أسئلة محيرة توهتني، أجاب عنها القدر الذي قادني إلى الخروج من تلك المتاهة والحيرة بظفر، جعلني أن أبصم بقدرية الإنسان دون شك، وأن الإنسان مسير بشكل سلس في حياة الدنيا.

الامارات

عندما وطئت قدماي أرض الإمارات عام 1999، كنت أحمل بين ضلوعي حلمًا كبيرًا بأن أعمل مدرسًا في دولة فتحت ذراعيها للعلم والتطور. لكنني اصطدمت بالواقع القاسي، بعد محاولات متكررة دامت ثلاثة أشهر اقتحمت فيها دائرة التعليم وتشبثت بمديرية التربية والمدارس الخاصة، دون أن تثمر جهودي عن نتيجة. كنت أطرق الأبواب يومًا بعد يوم، وأعلن في الصحف أسبوعيًا عن مدرس رياضيات يبحث عن فرصة عمل، حتى خارت قواي وشلّ جيبي، ولم يتبقَّ لي سوى مبلغ العودة إلى العراق.

سكَنت حينها في شقة متواضعة بمدينة الشارقة، يديرها رجل مصري اسمه مؤنس، كان يؤجر أسرّة في غرف متفرقة ليسترزق منها. ومع مرور الوقت نشأت بيننا ألفة وصداقة صادقة، خاصة حين شاركني السكن أيضًا الفنان البارع سلام زهرة. كنت أعيش بين أوراقي وأملي، وتمر الأيام دون نتيجة، حتى قررت العودة إلى العراق، إذ كان الحصار في ذروته.

قبل يومين من موعد رحيلي، ألحَّ عليّ مؤنس أن أكتب له كلمات بسيطة يصوغ بها إعلانًا عن طلبي للعمل، ليقوم هو بنشره في الجريدة على حسابه الخاص، برفقة إعلان يخصه...

قلت له يائسا:...

- لقد مللت من كثر الاعلانات التي نشرتها فلا جدوى من ذلك.
- طيب يا أخي اصغي لي واجعلها آخر محاولة، وأنت لا تخسر شيء سأنشرها على حسابي الخاص.
- شكرا لاهتمامك يا طيب، فأنت تخجلني بعطفك...

حينها كتبت له عشرة كلمات عن مدرس يبحث عن وظيفة. أخذها وذهب بها إلى جريدة الاعلانات

امتثلْتُ لطلبه مدفوعًا بعطفه الصادق، وكتبت له عشر كلمات فقط. وفي صباح اليوم التالي، انهالت عليّ المكالمات من مدرستين خاصتين، وقّعت عقدًا مع إحداهما، وتمت الإجراءات بما فيها الإقامة، ثم قبلتني وزارة التربية لاحقًا في ذات السنة.

كان ذلك التحول المحوري بفضل مؤنس، طيّب الذكر، صاحب القلب الرحيم الذي لم يتخلَّ عني في لحظة اليأس. كلما تذكّرت تلك اللحظة، تساءلت في داخلي: ما الذي دفعه لذلك الاهتمام العميق؟ من الذي ألهمه تلك الرحمة وألّف بين إعلانه وإعلاني؟ هل هو القدر الذي رسم الطريق دون أن نعلم؟ هل نحن فعلاً مسيّرين في حياتنا؟

تلك التجربة علّمتني أن يد العناية قد تمتد إلينا حين نظن أن لا أحد يرى، وأن الأمل قد ينبثق من حيث لا نتوقع. ومنذ ذلك الحين، بتّ لا أحمّل الدنيا همًا، ولا ألهث وراءها. فربّ الأحداث تسير كما شاء الله، لا كما شئنا.

15- الحوادث الجانبية التي تعرضت لها

1- مباراة كرة القدم

كنت طفلًا في التاسعة أو العاشرة من العمر، تلميذًا في الصف الرابع الابتدائي، يحمل قلبًا نابضًا بالحماسة لعالمٍ أكبر من مقاعد الدراسة. كنا نرتاد ملعب السكك في جلولاء، نشاهد فريق مدينتنا وهو يخوض غمار المباريات وكأننا نؤازر حلمًا أكبر منا.

كان بجوار الملعب جسور حديدية، ضخمة وعالية، ترصّها مؤسسة السكك على شكل طبقات مترابطة بشرائط معدنية تأخذ هيئة حرف "X". تلك الكتل كانت ملعبنا البديل، نعلو فوقها لنطلّ على أرض المباراة من علوّ يشبه خيال الطفولة المتوثبة. برفقة زميلي علي رحيم ومفيد منشد، كنا نتسلقها ضاحكين متحمسين، كان الحارس اسمه هاني والمهاجم اسمه دشر، نهتف كلما اندفعت الكرة نحو الهدف، نردد بصوت واحد:

"لا تهتم يا هناني... دشر نزل بالساحة!"

كل شيء كان نابضًا بالحياة، حتى تلك اللحظة التي انقلبت فيها الطفولة رأسًا على عقب. بينما أنا منهمك في متابعة مجريات المباراة، سقطت فجأة من أعلى الجسر المعدني، بلا توقع أو إنذار. اصطدم رأسي بشريط الحديد وتشبّثت بجسدي علامات النزيف من مقدّمة الرأس ومؤخرته، وما شعرت إلا بالدماء تتسابق للخروج، تحاول إطفاء وهج الحماس في داخلي.

غسلت وجهي تحت حنفية مياه محطة السكك، وجرجرت قدمي نحو البيت، على بُعد 400 متر، ثم إلى المستوصف برفقة أبي، حيث عالجني المضمد فرج وكأن يده كانت مرسلة من السماء.

إلى اليوم... لا أعرف من دفعني: هل كان علي؟ أم مفيد؟ ومنذ تلك اللحظة، بقيت تائهًا في دوائر الأسئلة: لماذا؟ هل كان عبثًا؟ أم نيةً خفية؟ لكن ما أعلمه أن يدًا غيبية أمسكت بي حينها، حفظتني من الموت، ومن عوق ربما كان سيغيّر مسار حياتي بالكامل.

تلك الحادثة خلّفت ندبة ليست في الجمجمة وحدها، بل في أعماق الروح... ندبة تسألني كلما صمت الليل: هل كل شيء كان مجرد عبث؟ أم أن في السقوط رسالة؟

2- الميكانيك

قبل أسبوعين من انتهاء السنة الدراسية، توجهت إلى مركز إصلاح العجلات في مدينة العين الإماراتية، وهو موقع مخصص للورش ومحلات بيع قطع الغيار، يمتد على مساحة واسعة تزيد عن كيلومترين مربعين، ويُقسّم إلى بلوكات متشابهة، كل منها بطول خمسين متراً وعرض ثلاثين متراً، ويضم كراجات إصلاح ومراكز بيع قطع الغيار.

كنت أبحث عن إصلاح عطل في سيارتي من نوع "أوبل"، وبعد أن فحصها الميكانيكي في إحدى الورش، طلب مني أن أشتري قطعة غيار من المحل المقابل. كنت أتهيأ لنقل السيارة إلى العراق، خاصة أن الرحلة كانت تتم عبر البواخر إلى ميناء خور عبدالله في الجنوب العراق.

وبينما كنت أتهيأ لعبور الشارع الفاصل بين الورشة والمحل، وقفت في منتصف البلوك تماماً، أمام محل قطع الغيار. تلفّتُ يميناً وشمالاً لأتفادى أي خطر محتمل؛ كان الطريق خالياً تماماً من العجلات. لكن ما أن وضعت قدمي اليسرى على الإسفلت، حتى باغتتني مركبة "بيك آب" مسرعة، كأنها خرجت من العدم، وطرحتني أرضاً بعنف، تغرقني في دمي.

اصطدمت مرآة السيارة بجبهتي، فتركت جرحاً فوق حاجبي الأيسر، كما تمزق كاحلي الأيسر كأن سكيناً حادة مزّقته عرضياً بعمق يقارب الإنش. الحمد لله، لم أتعرض لكسر، لكنني مكثت أسبوعاً راقداً في المستشفى، ثم خرجت أتنقل بعكازة فترة طويلة. أما جرح الجبهة، فكان طفيفاً، تاركاً أثراً بسيطاً، لكن جرح الكاحل كان عميقاً، استدعى غرزاً عدة إبر وتأخر شفاؤه، إذ بقيت لستة أشهر غير قادر على الضغط عليه أثناء المشي. ما يحيرني حتى اليوم، هو كيف جاءت تلك

المركبة وصدمتني رغم أنني تفحصت الطريق جيداً قبل أن أخطو. لو خرجت من شارع فرعي، ما كانت لتسير بهذه السرعة، خاصة أننا في منطقة مزدحمة بالورش. لكن رعونة ذلك السائق الأفغاني، الذي لا يكترث بأرواح الناس، كانت هي السبب.

شعرت حينها أن يد الرحمة قد امتدت إليّ؛ فالحادثة وقعت بينما كانت إحدى قدميّ قد استقرت على الشارع، والأخرى لا تزال على الرصيف. لو أنني نزلت بالكامل، لكانت الضربة مميتة. تفحصت الطريق جيداً، لكنني لم أستطع تجاوز خبث الحادث، كأنني أصبت بغشاوة؛ كيف استطاعت المركبة أن تسبق حدسي؟ كيف خدعت نظري وتملصت من رقابتي؟

لقد اخترقت المركبة حاجز السلامة بسرعة متهورة، عبرت مسار الصبر لتجدني في لحظة ضعف، وتكاد تصنع مني ضحية للقدر. ولكن عناية الله كانت فوق كل شيء، أشفقت عليّ من شر السائق وغدر الحادث، ورفعتني من مصير مظلم إلى آخر أخف وطأة، لأصل إلى مبتغى النفس، سالماً من الكسور. حقاً، كانت لحظة فاصلة بين القدر والرحمة.

3- التنكر العسكري

في يوم 2001/7/1، بعد شهر تماماً من حادثة مدينة العين، كنت أقود سيارة الأوبل التي جلبتها معي من الإمارات، متوجهاً من مدينة المقدادية إلى جلولاء. كنت وحدي في السيارة، ولم أرتدِ حزام الأمان. الجو في تموز حار جدًا، لكن المكيف ممتاز داخل السيارة جعلني أتجاهل الحرّ، فسرت بسرعة 130 كيلومتر في الساعة على طريق مفرد للذهاب والإياب، خالٍ تمامًا من المركبات.

قبل وصولي إلى منعطفات جبال حمرين، لمحت أمامي تنكر ماء عسكري يسير بسرعة السلحفاة، لا تتجاوز 30 كيلومتر في الساعة، وقد اتخذ الجانب الأيمن من الطريق بينما كنت أسير في الجانب الأيسر. وعندما اقتربت من تجاوزه، وعلى بعد حوالي 30 إلى 40 مترًا، انحرف فجأة نحو اليسار دون سابق إنذار، متجهًا نحو معسكر قريب يقع يسار الشارع، دون استخدام إشارات أو مصابيح، إذ كانت معطّلة ومكسورة بسبب ظروف الحصار التي أرهقت المؤسسات العسكرية والمدنية آنذاك.

وجدت نفسي في موقف صعب، فتوقفت الخيارات أمامي: إن حاولت الكبح الفرامل بسرعة، فربما تنقلب السيارة بي، وإن استمريت، قد أصطدم بالتنكر. فقررت تجاوزه جزئيًا بالخروج عن الطريق، نصف السيارة يسير على الحافة الترابية والنصف الآخر على الإسفلت. وفي تلك اللحظات الحرجة، وبينما كنت أهُرب من المسار الغير المتوقع، فوجئت بحفرة صغيرة حفرتها مياه الأمطار على الجانب الترابي، فانحرف المقود في يدي، وانزلقت السيارة نحو الوادي المجاور بعمق عشرة أمتار، حيث تدحرجت عدّة مرات قبل أن تستقر على سفح تلة مقابل الطريق، على بعد خمسين مترًا.

لـم يكلّـف سـائق التنكـر نفسـه حتـى بإلقـاء نظـرة، رغـم أنـه كـان سـبب الحادثـة. لا هـو ولا مـن كـان يجلـس إلـى جانبـه سـارع لمسـاعدتي. تُركـت فاقـدًا للـوعي، لـولا شـباب القريـة المجـاورة الـذين هبّـوا لإنقـاذي، ونقلـوني بسـيارتهم إلـى مشـفى المقداديـة، ثـم بعجلـة إسـعاف إلـى مشـفى بعقوبـة المدني.

استعدت وعيـي فـي الطريـق، وبفضـل الله لـم أُصـب بكسـور. كـان المشـهد مروعًـا، ومـن يـرى السـيارة لا يصـدق أن أحـدًا خـرج حيًّـا منهـا، بعـدما انطبـق سـقفها علـى موضـع السـائق. والمفارقـة أن سـبب نجـاتي كـان عـدم ارتـدائي لحـزام الأمـان، إذ انحـرف جسـدي تلقائيًـا نحـو المقعـد المجـاور، مما أنقذ رأسي من السحق.

أحمـد الله علـى نجـاتي، إذ لـم يُصـب جسـدي سـوى بكدمـة بسـيطة فـي الجبهـة وترضّـض خفيـف فـي الأضـلاع. أؤمـن بـأن حفـظ الله لـي لـه غايـة، وأن ثمـة قـوة خفيّـة ترافقنـي وتسـندني فـي الحيـاة، ربمـا صـدقة أو فعـل خيـر دفـع عنـي شـرّ الحـادث والحسـد. وكـل يـوم أزداد يقينًـا بـأن الله لا يحفظ إنسانًا إلا لحكمة، ورسالة لم تكتمل بعد.

16- الخاتمة

لأختتم ما بدأت بما انتهيت إليه؛ يا ترى، هل كانت كل تلك الأحداث مصادفة؟ أليست جميع تلك المواقف، رغم قسوتها، تسير بلمعة واحدة، تحاول أن تنقذني، تبعدني عن دائرة الهلاك، تجرّدني من العناء دون أن أطلب؟ كأنما قدّر لها أن تحميني من اللحظة الناقمة، في كل مرة.

دعنا نبدأ بالأحداث العارضة، فكلها كانت مميتة، وخرجت منها بقدرة من الله. من شجّ الرأس على جسر السكك الحديدية حين زقّني أحد الأصحاب، إلى انقلاب السيارة التي ما بقي فيها موضع دون طعجة أو انحناءة، مرورًا بحادثة البيك-أب الذي باغتني كالطائر الجارح فأرداني غارقًا في الدماء.

ثم حادثة العقرب، المحشورة داخل البسطار العسكري، تلك التي نجوت منها لأنني ارتديته على عجل بسبب وصول الآمر، ولو كنت لبسته برويّة لأخذت العقرب وقتها ولسعتني بسمّها القاتل. لطف الله تجلّى حتى في هذه التفاصيل البسيطة. وسماع صوت الحجرة المتدحرجة ليلًا قبل لحظات من وصول العقرب لقدمي، كانت إشارة مبطّنة من المطلق... كان الصوت تحذيرًا قبل الفتك، مشهد يفوق التصوّر.

رؤيا الإمام العباس في المنام، وصوت البرق الذي خطّ اسم الرسول محمد ﷺ عبر السماء بخط ديواني، شكلٌ من الطمأنينة لا أستطيع تفسيره. كم حلم رأيته فتطابق مع الواقع! في الحرب، في المواقف المصيرية، في الامتحانات، كأن شيئًا غير مرئي يُرشّدني ويضعني حيث يجب أن أكون.

أحسّ أنني مسنود، مؤيد، ترافقني قوة غامضة، لا تدعني أسقط، تهدهدني حين ترتجف الأرض من تحتي. هذا الإحساس لم يفارقني، إحساس بالأمان والنصر والثقة، كأنني محاط بجيش من الملائكة يعملون بصمت في حقلي، يرافقون ظني، يحرسون خطاي.

ولذلك، أصبحت أؤمن بأنني محفوظ بإذن الله، وأينما كنت، سيكون الأمان في ركابي. الأمان الذي يتمثل في الإمام العباس، الذي سكن فكري منذ أن وعيت على الدنيا، والذي كان حاضراً في كل رؤيا، وكل نجاة، وكل لحظة عصيبة مررت بها.

الرؤيا لم تنتهِ، بل استمرت رفيقة دربي: في حادثة أحمد رسول حين طلب مني عدم مرافقته وكأنّه علم بمصيره... في رسوبي المتعمد في مادة الثقافة القومية، الذي قادني إلى أن أُساق جنديًا، لأنتدب للتدريس... في عبور بحر إيجة، حين رفضت مرافقة بحّار عبثي، فغرق القارب الذي دعاني للعبور فيه... في وصولي إلى صنعاء ومعي خمسون دولارًا فقط، فيأتي المرسل، الأستاذ خالد، كمن أُرسل ليخصني بالتيسير وسط مئات ينتظرون أدوارهم. وفيما فعله مؤنس، حين نشر إعلان التوظيف على حسابه...

كل هذه المواقف، كلها، لم تكن عبثًا. كما قال الله تعالى: "أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا تُرجعون؟" صدق الله العظيم.

ويبقى السؤال الذي ما زلت أعجز عن الإجابة عنه: لماذا أنا؟ لماذا اختارتني تلك الرؤى، أو تمخضت لي دون غيري؟ أترك هذا السؤال مفتوحًا، ليشغل ذهن القارئ العزيز، ليتأمل الدلالة التي ما زالت خافيةً عني، علّ أحدهم يرى في قصتي ما يضيء له دربه.

الكاتب: عباس مدحت البياتي

النهاية

للكاتب عشرات الكتب بين رواية ومجموعات قصصية

المجموعات القصصية:-

1- فرصة هدف
2- عصير الرمان
3- لغة العود والحجر
4- زيارة طبيب
5- كرستال

مجموعة الروايات:-

1- لغز اللؤلؤة
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة من العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- عقاب الذات
9- الاقداح المتكسرة
10- عواصف الجنين
11- الفراغ
12- القمة

بصرختها صفعت سكوني، لم أملك جوابًا لسؤالها: "لم أنت هنا؟ في هذا الموقع البليد؟" خنقني الصمت، جبهة لا عهد لي بها، حيث رائحة الموت تعم المكان. تلك القذيفة بدا وكأنها فهمت ما لم أقدر على البوح به، وعكفت عن اتهامي، تاركة لي أن أقرأ ملامحها التي نطقت بالشفقة، وارتقت بدخانها إلى حيث لا يصل إليه سوى الخوف والارتياب.

تلك اللحظة أولى خطواتي في الجبهة، أول ارتطام لذاتي بواقع لا يرحم. بعدها انعزلت، صرت أراجع ذاتي، أستجوب مشاعري، أحصي غايات نفسي وسط دوامة العبث. صار الخوف رفيقي، يسكن خلايا جسدي، لا أغادر إلا للضرورة، والسلوك الحذر بات عنواني بين الزملاء، فهموا قلة تجربتي وربما رقّة شعوري.

ذلك الموقف ترك بصمة لا تُمحى على جدار القلب، كنقش الحجر. بات الدخان شبحًا يطاردني في يقظتي ومنامي، يرسم لي ملامح البؤس، مثقلًا بالوجع والغموض. أسأل نفسي: إن تعوقت، كيف سأكمل ما تبقى من الحياة؟